الباب الرابع والثلاثون

انتقال المعـــارف

١٠٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

نشأة اللغات القومية

حافظت الكنيسة إلى حد ما على وحدة أوربا الغربية التى حققتها الدولة الرومانية وحافظت كذلك شعائرها وعظاتها ومدارسها على تراث رومانى لم يبق له وجود فى هذه الأيام – هو لغة دولية يفهمها جميع السكان المتعلمين فى إيطاليا ، وأسپانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، واسكنديناوة ، والأراضى الوطيئة ، وألمانيا ، وپولندة ، وبلاد المجر ، وبلاد البلقان الغربية . لقد كان المتعلمون من أهل تلك البلاد يستخدمون اللغة اللاتينية فى مراسلاتهم ، وفى سجلات أعمالهم التجارية والمالية ، والدپلوماسية ، وفى القانون والأعمال الحكومية ، وفى العلم والفلسفة ، وفى آدابهم كلها تقريباً قبل القرن الثالث عشر . وكانوا يتكلمون اللغة اللاتينية على أنها لغة حية ، تشتق فى كل يوم كلمة أو عبارة جديدة للدلالة على الحقائق أو الأفكار الجديدة أو المتغيرة فى حياتهم ؛ وكانوا يكتبون رسائل باللاتينية من أبسط خطابات الحب إلى الرسائل الفصحى الطويلة المتبادلة بين هلواز وأبلار(*) Héloïse and Abélard . ولم يكن الكتاب يؤلف لأمة بل لقارة ، ولم يكن فى حاجة

(*) انظر هذه الرسائل وقصتها فى كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

obeikandi.com

إلى ترجمة بل كان ينتقل من قطر إلى قطر بسرعة وحرية غير معروفتين فى هذه الأيام . كما كان الطلاب ينتقلون من جامعة إلى جامعة دون أن تصادفهم عقبات اللغة ، وكان فى وسع العلماء أن يحاضروا باللغة نفسها فى بولونيا ، وسلمنقة ، وباريس ، وأكسفورد ، وأپسالا Uppsals ، وكولونى. ولم يكونوا يترددون فى استعارة كلمات جديدة وضمها إلى اللغة اللاتينية ، وإن كان ذلك يزعج فى بعض الأحيان الآذان التى اعتادت سماع لغة پترارك وشيشرون . وهكذا يستخدم العهد الأعظم الإنجليزى Magna Carta لفظى dessaisiatus و imprisonatus حين يقول إنه لا يصح أن « يقبض » على رجل حر أو « يسجن » . وأمثال هاتين الكلمتين ثقيلة الوقع على آذاننا ، ولكنها قد أبقت اللغة اللاتينية حية ؛ وإن كثيراً من الألفاظ الإنجليزية الحديثة — مثل instance ، و substantive, و esssence و entity(*) — لتنحدر من الكلمات التى أضيفت إلى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى .

غير أن انفصام الصلات الدولية الذى أدى إليه سقوط رومة ، وانتشار الفاقة فى العصور المظلمة انتشاراً أدى إلى انطواء الناس على أنفسهم ، وفساد الطرق وكساد التجارة ، كل هذا أوجد فى الكلام تلك الاختلافات التى ما ابثت أن اتسعت بسبب عزلة المتحدثين ا بعضهم عن بعض . بل إن اللغة اللاتينيه كانت تعانى فى أوج عزها بعض التغيرات القومية الناشئة من اختلاف المناخ وأساليب المنطق المترتبة على تركيب أعضائه ، وكانت قد تبدلت فى موطنها الأصلى نفسه . وكان موت الأدب قد أفسح الميدان لمفردات الرجل العامى وتراكيب جمله ، وهى مفردات وتراكيب كانت تختلف دائماً عن أقوال الشعراء والخطباء . وجاء تدفق الألمان ، والغاليين ، واليونان ، والأسيويين على إيطاليا باختلافات كثيرة فى النطق ، وتخلص اللسان والعقل الكسولان بفطرتهما مما فى الحديث الفصيح

(*) ومعناها المِثْل ، والاسم (فى النحو) ، والجوهر ، والكيان . (المترجم)

obeikandl.com

الدقيق من علامات التصريف والإعراب فأضحى حرف H لا ينطق به فى اللغة اللاتينية المتأخرة ، وبعد أن كان حرف V ينطق به فى اللغة الفصحى كما ينطق بحرف W فى اللغة الإنجليزية أصبح ينطق به كما ينطق بحرف V الإنجليزى . وامتنع النطق بحرف N قبل S فكلمة mensa (المائدة) أصبح ينطق بها nesa ، وتغير النطق بالحرفين المتصلين Æ و Œ وكان ينطق بهما فى اللغة الفصحى كما ينطق بحرف I ، OI فى اللغة الإنجليزية فأصبح ينطق بهما كحرف A الإنجليزى الطويل أو حرف E الفرنسى . ولما كانت الحروف الساكنة فى آخر الكلمات قد مضغت أو نسيت cilo, ciel (Coelum, ؛ rex, re,roi ؛ portus, porto, porte) فقد اقتضى ذلك أن تستبدل حروف الجر بعلامات الإعراب فى الأسماء ، وبعلامات التعريف فى أواخر الكلمات أفعال مساعدة . وتبدل أسماء الإشارة القديمان ille ، و illa فأصبحا هما أدوات التعريف il ، el ، lo ، le ، la ؛ واقتضب لفظ unus (واحد) اللاتينى ليكون أداة التنكير un . ولما انعدم تصريف الأسماء صار من الصعب أحيانا أن يعرف هل الاسم فاعل أو مفعول قبل الفعل أو بعده . وإذا ما تدبر الإنسان هذه العملية — عملية التبدل المستمر الممتد طوال عشرين قرنا من الزمان جاز له أن يقول إن اللغة اللاتينية لا تزال هى اللغة الحية الأدبية فى إيطاليا ، وفرنسا وأسبانيا ، لم تتغير عن لغة شيشرون إلا بقدر ما تغيرت لغته هو لغة رميولوس أو لغتنا نحن(*) عن لغة تشوسر .

وكانت أسپانيا قد بدأت تتكلم اللاتينية منذ عام ٢٠٠ ق . م لا بعد ، وما وافى عهد شيشرون حتى اتسعت الهوة بينها وبين لاتينية رومة اتساعا روع شيشرون لما بدا له من رطانة قرطبة البربرية . وكان اتصال هذه اللغة اللاتينية بلهجات أيبيريا سبباً فى ترقيق الحروف الساكنة اللاتينية فى أسپانيا : فرقت T إلى D ، P إلى B ، و K إلى G ؛ فـ Totum أصبحت todo ، و operan

(*) لغة الأمريكيين والإنجليز . (المترجم)

أصبحت obra ، و ecclesia أصبحت iglesia . كذلك رققت اللغة الفرنسية الحروف الساكنة اللاتينية ، وكثيراً ما أسقطتها فى النطق وإن ظلت محتفظة بها فى الكتابة : tout ، oeuvre ، église ، est . ونطق بالقسم الذى أقسمه لويس الألمانى Louis the German . وشارل الجسور بلغتين هما الألمانية والفرنسية(*) — الفرنسية التى كانت لا تزال لاتينية إلى حد سميت معه اللغة الرومانية lingua romana ، ثم انقسمت هذه اللغة الرومانية إلى ما سمته فرنسا لغتين : langue d'oc وهى لغة فرنسا الواقعة فى جنوب نهر اللوار و langue d'oïl وهى لغة فرنسا الشمالية(**) : فلقد كان من عادات العصور الوسطى التفريق بين اللهجات بالطريقة التى ينطقون بها اللفظ المقابل للفظ « نعم » العربى ؛ فأهل فرنسا الجنوبية كانوا يعبرون عنه بلفظ oc المشتق من اللفظ اللاتينى hoc ومعناه هذا ، أما أهل الشمال فكانوا يستعملون لفظ oîl وهو مزيج من اللفظين اللاتينيين hoc ile ، أى هذا — ذاك : وكان لفرنسا الجنوبية لهجة من لهجات اللانج دك تسمى البروڤنسال أضحت فيما بعد لغة أدبية مصقولة على أيدى الشعراء الغزلين ، ولكن الحروب الصليبية الألبجنسية كادت تقضى على هذه اللغة .

وكونت إيطاليا لغتها القومية ببطء أكثر مما تكونت به لغتا أسبانيا وإيطاليا . ذلك أن اللاتينية كانت لغتها الوطنية ، وأن رجال الدين ، وهم الذين كانوا يتكلمون اللغة اللاتينية ، كانوا كثيرى العدد فى إيطاليا ، وأن استمرار

(*) وتدل الثلاثة السطور الأولى من هذا القسم على البطء الذى نشأت به اللغتان الفرنسية والألمانية "Pro Deo amur et pro Christian poblo et notre Commun salvament, dist di in avant, in qnant Deus savir et podir me punt". "In Gedes min a ind in these Christian folches unser bedhero gealnissi, fon thesemo dage frammordes, so frame so mir Got gewizci indi madh forgibit"

وترجمتها العربية هى : حبا فى الله ، ولخير الشعب المسيحى ، ولنجاتنا جميعا ، ومن هذا اليوم إلى ما بعده ، بقدر ما يهبنى الله من الحكمة والقوة » .

(**) معنى اللفظين oc و oïl كليهما « نعم أو هذا » وكل الفرق هو فى طريقة النطق باللفظ الذى يحمل هذا المعنى . (المترجم)

ثقافتها ومدارسها منع اللغة أن تتغير بنفس اليسر والتحرر اللذين تغيرت بهما في بلاد ذات تقاليد متقطعة غير متصلة .

ولقد كان القديس أنطونيوس أحد رجال الدين في پدوا في ذلك العام المتأخر عام ١٢٣٠ يخطب العامة باللغة اللاتينية ؛ بيد أن عظة لاتينية ألقاها في پدوا نفسها عام ١١٨٩ أسقف لاتيني زائر كان لا بد أن يترجمها إلى اللغة الدارجة أسقف من أساقفة تلك المدينة[٢] . ولم يكد يكون للغة الإيطالية وجود في بداية القرن الثالث عشر ؛ وكل ما كان في إيطاليا في ذلك الوقت نحو أربع عشرة لهجة ، كانت هي استمراراً وتحريفاً متنوعاً للهجات السوقة لا تكاد إحداها يفهمها الباقون الذين لا ينطقون بها ، وتعتز كل منها بما بينها وبين غيرها من فروق اعتزازاً مبعثه العنصرية العارمة ؛ وكان لكل حي من الأحياء المختلفة في المدينة الواحدة — كمدينة بولونيا — في بعض الأحيان لهجة مختلفة . لهذا كان لزاماً على أسلاف دانتي أن يخلقوا لغة ، كما كان عليهم أن يخلقوا أدباً . ولقد حسب الشاعر في أحد أخيلته الظريفة أن الشعراء الغزلين التسكانيين اختاروا أن يكتبوا شعرهم باللغة الإيطالية لأنهم كانوا يكتبون في الحب ، ولأن السيدات اللائي كن يخاطبونهن قد لا يفهمن اللغة اللاتينية[٣] . غير أنه مع هذا تردد في عام ١٣٠٠ بين اللغة اللاتينية واللهجة التسكانية أيهما يختار لكتابة **الملهاة الإلهية** . وكان الفارق البسيط بين اللغة التي اختارها والتي لم يخترها هو الذي أنجاه من النسيان .

وبينا كانت اللغة اللاتينية تنقسم وتتولد منها اللغات الرومنسية ، كانت اللغة الألمانية القديمة تتفتت هي الأخرى إلى اللغة الألمانية الوسطى ، واللغة الفريزية ، والهولندية ، والفلمنكية ، والإنجليزية ، والدنمرقية ، والسويدية ، والنرويجية والأيسلندية . وليست عبارة « الألمانية القديمة » إلا تعبيراً سهلا يشمل اللهجات الكثيرة التي كانت تفرض سيادتها القبلية أو الإقليمية في ألمانيا قبل عام ١٠٥٠ :

وهى اللهجات الفلمنكية ، والهولندية ، والوستفالية (الغالية الغربية) والإبستفالية (الغالية الشرقية) والألمانية Allemanic ، والباڤارية ، والفرنكونية ، والثورنجية ، والسكسونية ، والسيكيزية .... وتطورت اللغة الألمانية القديمة إلى الألمانية الوسطى (١٠٥٠ — ١٥٠٠) وكان من أسباب هذا التطور تدفق الكلمات الجديدة التى جاءت مع الدين المسيحى . ذلك أن الرهبان القادمين من أيرلندة ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا جدوا فى وضع المصطلحات التى كانوا فى حاجة إليها لترجمة الألفاظ اللاتينية . فكانوا فى بعض الأحيان يدخلون كلمات لاتينية بنصها إلى اللغة الألمانية — مثل Kaiser (قيصر) و Prinz (أمير) و Legende (قصة) ؛ وتلك لصوصية مشروعة ؛ لكن كان من المآسى تأثير التركيب اللاتينى للجمل كتأخير الفعل إلى آخر الجملة — فقد أحل الوقفات الجامدة المقاوبة القاطعة للأنفاس التى نراها فى الأسلوب الألمانى المتأخر محل التراكيب السهلة التى كانت من خصائص لغة الشعوب الألمانية(٤) . ولعل أجمل اللغات الألمانية كانت هى اللغة الألمانية العليا الوسطى التى كتب بها الشعراء العظام فى القرن الثالث عشر — ولتر ڤن در ڤو جلويد Walter vsn der Vogelweide ، وهارتمـــان ڤن أوى Hartman von Aue ، وجتفرايد الاسترسبرجى Goufried of Strassbourg ، وولفرام ڤن اسشنباخ Wolfram von Eschenbach ؛ ولم تعد اللغة الألمانية إلى مثل هذه البساطة والمرونة ، والوضوح ، والقصد مباشرة إلى المعنى المطلوب إلا على يد هين Heine وجيتة الشاب .

وانتقل اللسان التيوتونى إلى انجلترا فى القرن الخامس مع الإنجليز ، والسكسون والچوت ، وكان هو أساس اللغة الإنجليزية الحاضرة . فهو الذى حباها بكل ما تنطوى عليه تقريباً من كلمات قصيرة طلية . ثم طغت اللغة الفرنسية على البلاد حين أقبل عليها النورمان ، وسيطرت على البلاط ، والمحاكم ، والأشراف من عام ١٠٦٦ إلى ١٣٦٢ ، وإن ظلت اللاتينية اللغة السائدة فى

الدين والتعليم ، وبقيت (إلى عام ١٣٧١) واجبة الوثائق الرسمية ، ودخلت آلاف الكلمات الفرنسية فى اللغة الإنجليزية ، وبخاصة فى الثياب ، والطهو ، والقانون ؛ حتى أصبحت نصف المصطلحات فى القانون الإنجليزى فرنسية(٥) ؛ وظلت آداب فرنسا وإنجلترا مدى ثلاثة قرون آداباً واحدة ؛ كما ظلت الرسائل الإنجليزية فى روحها ولغتها حتى زمن تشوسر لا قبل (١٣٤٠ — ١٤٠٠) نصف فرنسية . ولما فقدت إنجلترا أملاكها فى فرنسا عادت إلى الانطواء على نفسها ، وانتصرت العناصر الأنجليسكسونية فى اللسان الإنجليزى ؛ ولما زالت السيطرة الفرنسية من البلاد ، كانت اللغة الإنجليزية قد اغتنت غناء لا حد له ؛ فقد استطاعت بما أضيف إلى أصلها الألمانى من ألفاظ فرنسية ولاتينية ، أن تعبر عن كل فكرة من آلاف الأفكار المختلفة بثلاثة تعبيرات مختلفة (kingly, royal بمعنى ماكى ؛ towfold, double, duplex بمعنى مزدوج ؛ daily, Journal, diurnal بمعنى يومى ؛ . . .) . وإلى هذا يرجع غناها بما فيها من مترادفات تميز بها الفروق المختلفة فى المعانى والاختلافات الدقيقة فى ألفاظ الحديث : ومن يعرف تاريخ الألفاظ يعرف التاريخ كله .

الفصل الثانى

عالم الكتب

وكيف كانت تكتب هذه اللغات المختلفة ؟ لقد استعمل البرابرة بعد أن سقطت رومة أيديهم عام ٤٧٦ الحروف الهجائية اللاتينية ، وكتبوها كتابة « جارية » ، ربطوا فيها الحروف بعضها ببعض ، وخلعوا على معظمها شكلا دائريا بدل الحروف المعتدلة التى كانت سهلة الاستعمال فى الكتابة على السطوح الصلبة كالحجارة أو الخشب . وكانت الكنيسة فى تلك القرون تفضل الكتابة ذات الحروف « الكبيرة » لتسهل بذلك قراءة كتب القداس وكتب الصلوات . ولما عمل النساخون فى عهد شارلمان على حفظ الآداب اللاتينية بنسخ عدة كتب من الآداب القديمة ، استخدموا فى عملهم هذا كتابة ذات حروف « صغيرة » ، واتفقوا على صور معينة لهذه الحروف ، فأوجدوا بذلك « الحروف الصغيرة المقررة » التى ظلت أربعة قرون الطريقة العادية التى تكتب بها نسخ العصور الوسطى . وكأنما أريد أن تتمشى هذه الحروف مع الزخارف الخصيبة التى أخذت تنمو فى العمارة القوطية فأضيفت إليها شرط تزينها ، وخطوط شَعْرية رفيعة ، وزوائد معقوفة ، فأصبحت هى الحروف « القوطية » التى ظلت منتشرة فى أوربا إلى عهد النهضة ، وفى ألمانيا حتى يومنا هذا . ولم توضع علامات الترقيم إلا فى عدد قليل جداً من مخطوطات العصور الوسطى ؛ لأن هذه الوسيلة التى ترشد القارئ إلى حيث يلتقط نَفَسه قد ضاقت فى أثناء الغوص التى صحبت غارات البرابرة ، ثم عادت إلى الظهور فى القرن الثالث عشر ولكنها لم يعم استعمالها حتى قررتها الطباعة فى القرن الخامس عشر . وكانت الطباعة قد أعدت عدتها إلى حد ما فى عام ١١٤٧ لا بعد وذلك باستعمال القطع الخشبية . وبدأ ذلك فى أديرة

بلاد الرين لطبع الحروف الأولى أو الرسوم على المنسوجات[٦] . وكانت أشكال كثيرة من الاختزال تستخدم فى تلك الأيام ، وكلها أحط كثيراً من « العلامات التيرونية » التى توصل إليها أرقاء شيشرون .

وكانوا يكتبون على الجلد السميك ، وأوراق البردى ، والجلد الرقيق أو الورق ، بريش الطير ، أو بأقلام الغاب ، ويستخدمون لذلك مداداً أسود أو ملوناً . واختفى البردى من الاستعمال العام فى أوربا بعد فتح العرب مصر . وكان الرق المتخذ من جلد الخراف الصغيرة غالى الثمن ، وكان لذلك يُدخر للمخطوطات المترفة ، أما الرق المتخذ من جلد الضأن السميك فكان هو المادة المعتادة للكتابة عليها فى العصور الوسطى . وظل الورق مادة غالية الثمن تستورد من بلاد الإسلام ، ولكن مصانع أقيمت لصناعته فى ألمانيا وفرنسا فى عام ١١٩٠ ، وشرعت أوربا فى القرن الثالث عشر تصنع ورقاً من الكتان .

وكانت كثير من الرقوق يُمحى ما عليها من مخطوطات قديمة ليكتب عليها كتاب جديد ، وكان يُطلق على هذه الرقوق اسم خاص هو palimsest ومعناه « الممحو مرة ثانية » . وقد فقدت كثير من الكتب القديمة بهذا المحو ، وبالوضع الخاطئ للمخطوطات ، وبالحرب والنهب ، والحريق والتلف . فقد نهب الهون مكاتب الأديرة فى بافاريا ، ونهب أهل الشمال مكاتبها فى فرنسا ؛ وتلفت كثير من الكتب اليونانية حين نُهبت القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ . وكانت الكنيسة فى بادئ الأمر تعارض فى قراءة الكتب الوثنية القديمة ؛ وقامت أصوات مرتاعة فى كل قرن تقريباً تندد بهذه الكتب ، منها أصوات جريجورى الأول ، وإزدور الأشبيلى ، وبطرس دميان . ودمر توفيلس كبير أساقفة الإسكندرية كل ما وجده من المخطوطات الوثنية ؛ كما أقنع القساوسة اليونان ، على حد قول دمتريوس كلكنديلاس Demetrius Chalcondylas[٧] ، أباطرة الروم بإحراق جميع مؤلفات الشعراء الغزلين ومنهم سافو وأنكريون . غير أنه

كان فى هذه القرون نفسها كثيرون من رجال الدين المولعين بالكتب الوثنية القديمة والحريصين على الاحتفاظ بهذه الكتب . وكانوا فى بعض الحالات يفلون سلاح النقد الموجه إليهم بتفسير معنى الشعر الوثنى تفسيراً يتضمن أعظم العواطف المسيحية ؛ واستطاعوا بطريق الاستعارات الظريفة أن يحولوا شعر أوفد الغرامى إلى شعر يحض على مكارم الأخلاق . وكذلك احتفظ النساخون فى الأديرة بقسم كبير من التراث الأدبى القديم[٨] ؛ وكان يقال للرهبان إذا تعبوا إن الله سيغفر لهم ذنباً من ذنوبهم نظير كل سطر ينسخونه ، ويحدثنا أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis أن أحد الرهبان نجا من الجحيم وكان على قيد شعرة منها بحرف واحد نسخه[٩] . ويلى الرهبان وحدهم فى نسخ المخطوطات القديمة الكتبة الخصوصيون أو المحترفون الذين يستخدمهم الأغنياء أو بائعو الكتب أو الأديرة نفسها . وكان عمل هؤلاء النساخين مجهداً مملا جعلهم يدونون على الصفحات الأخيرة من المخطوطات المنسوخة مطالب غريبة كقول أحدهم :

بهذا يتم جميع الكتاب

فبحق المسيح هات لى جرعة

وظن كاتب آخر أنه خليق بأكثر من هذا فكتب فى آخر مخطوطه تلك الخاتمة : « فليجز الكاتب على (عمل قلمه) بفتاة جميلة »[١٠] .

ولم تفرض كنيسة العصور الوسطى رقابة منظمة على نشر الكتب ؛ فإذا تبين أن كتاباً ما مناقض للدين ، وكان فى الوقت نفسه ذا تأثير قوى ككتاب أبيلار عن التثليث استنكره مجلس من مجالس الكنيسة ولكن عدد الكتب كان وقتئذ أقل من أن يكون شديد الخطر على الدين القويم ؛ وحتى الكتاب المقدس نفسه كان نادر الوجود فى خارج الأديرة ، فقد كان نسخه يحتاج إلى عام كامل ، وشراؤه يحتاج إلى إيراد قس أبرشية ؛ ولهذا قل من رجال الدين من

كان يمتلك نسخة كاملة منه (١٢) . غير أن كتاب العهد الجديد وأسفاراً خاصة من العهد القديم كانت أوسع منه انتشاراً . وأخرجت فى القرن الثانى عشر نسخ من الكتاب المقدس ضخمة الحجم ، فخمة الزخرف ؛ ولم يكن يستطاع استعمال هذه الكتب إلا على مكتب ، وكان ذلك عادة فى مكتبة الدير ، وكانت فى بعض الأحيان تشد إلى المكتب بسلسلة للمحافظة عليها . وقد روعت الكنيسة حين وجدت الولدنسيين والألبچنسيين ينشرون ويوزعون تراجمهم هم للكتب المقدسة ، ولهذا حرم مجلس من مجالس الكنيسة عقد فى نربونه (١٢٢٧) على غير رجال الدين أن يكون لديهم أى جزء من الكتب المقدسة ؛ ولقد تحدثنا عن هذا من قبل(١٣) . ولكن يمكن القول بوجه عام إن الكنيسة لم تكن قبل القرن الرابع عشر تعارض فى أن يقرأ الكتاب المقدس غير رجال الدين ؛ وإن لم تكن تشجع هذه القراءة لأنها لم تكن تثق بتفسير العامة لأسرار الكتب الدينية .

وكان حجم الكتاب وعدد صفحاته يحددهما ما يستطاع وجوده من الجلود ، وكان كل جلد منها يطبق لتتكون منه « ملزمة » ، ولم تكن الكتب بعد القرن الخامس تصدر فى صورة ملفات كما كانت تصدر فى العهود القديمة(*) ، بل كانت الجلود تقطع قطعاً مستطيلة لتكون ملازم من أربع أوراق ، أو ثمان ، أو اثنتى عشرة ورقة أو ست عشرة . وكانت ملازم مكونة من ست عشرة ورقة تضم مؤلفات طويلة فى كتب صغيرة الحجم توضع فى الجيب لتكون سهلة الاستعمال وكانت تغلف أحياناً بالرق السميك أو القماش ، أو الجلد المدبوغ ، أو الورق المقوى . وكان الغلاف المصنوع من الجلد يزخرف أحياناً بأن تطبع

(*) وظل كثير من السجلات الحكومية يكتب فى ملفات ؛ حتى أن « أنابيب الملفات » كانت تستعمل فى إنجلترا من عام ١١٣١ إلى عام ١٨٣٣ . وكان المكلف بالمحافظة على هذه السجلات يسمى صاحب الملفات » .

عليه رسوم غير ملونة بقوالب من المعدن المحمى . وجاء الفنانون المسلمون الذين استقروا فى البندقية إلى أوربا بفن ملء هذه الأجزاء المنخفضة من الغلاف بألوان ذهبية . أما الغلاف الخشبي فقد كان يزخرف أحياناً بالميناء أو العاج المحفور ، أو يطعم بالذهب أو الفضة أو الجواهر . وكان مما عابه القديس چيروم على الرومان قوله : « إن كتبكم مطعمة بالحجارة الثمينة ، مع أن المسيح مات عارياً ! »(١٤) وقل أن يوجد من الكتب الحديثة ما يضارع التجليد الفخم الذى حليت به كتب العصور الوسطى .

وكانت الكتب البسيطة نفسها من مواد الترف . فقد كان الكتاب العادى غير المزخرف يكلف مقتنيه ما بين ١٦٠ دولاراً ومائتى دولار من نقود الولايات المتحدة الأمريكية حسب قيمتها فى عام ١٩٤٩(١٥) . وحسبنا شاهداً على هذا أن أحد زعماء حركة إحياء الآداب القديمة فى القرن الثانى عشر وهو برنار من أهل شارتر قد خلف مكتبة لا تزيد مجلداتها على أربعة وعشرين مجلداً . وكانت إيطاليا أغنى بالكتب من فرنسا ، ولهذا جمع أكرسيوس Accursius الأكبر عالمها القانونى الشهير ثلاثة وستين كتاباً . ونسمع عن نسخة عظيمة من الكتاب المقدس بيعت بعشر وزنات — أى بما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ دولار ، وعن كتاب للصلوات استبدلت به كرمة ؛ وعن مجلدين من مؤلفات برشيان Prescian أحد النحاة فى القرن الخامس بيعاً ببيت وأرض(١٦) . وعاق غلو الكتب قيام تجارة بائعها حتى القرن الثانى عشر ؛ حين استأجرت مدن الجامعات رجالا من الوراقين وأصحاب المكتبات لينظموا جماعات من النساخين ينسخون الكتب للمدرسين والطلاب ، وكان هؤلاء الرجال يبيعون نسخاً منها لكل من يعنى بأداء أثمانها . ويبدو أنهم لم يدر قط بخلدهم أن يؤدوا شيئاً من المال لمؤلف حى . وإذا أصر رجل ما على أن يؤلف كتاباً جديداً ، كان عليه أن يؤدى نفقة كتابته ، أو يبحث عن ملك ، أو نبيل ، أو ثرى ينفحه بهبة من المال نظير إهدائه.

الكتاب أو الثناء عليه فيه . ولم يكن فى وسعه أن يعلن عن كتابه إلا شفويا ، كما لم يكن فى وسعه أن ينشره — أى يذيعه على الجمهور — إلا بالعمل على أن يستخدم فى إحدى المدارس أو أن يتلى أمام من يستطيع جمعهم من المستمعين . وبهذه الطريقة قرأ چرالد من أهل ويلز حين عاد من أيرلندة فى عام ١٢٠٠ كتابه فى تخطيط هذا القطر Topgraphy على جمعية فى أكسفورد .

وأدى ارتفاع أثمان الكتب ، وقلة الأموال اللازمة لإنشاء المدارس إلى انتشار الأمية إلى حد لو أنه وجد فى بلاد اليونان أو الرومان الأقدمين لحلالهم العار . فقد كانت معرفة القراءة والكتابة قبل عام ١١٠٠ فى البلاد الواقعة شمال جبال الألب تكاد تكون مقصورة على « خدم الدين » — وهم رجال الدين ، والحسبة ، والكتبة ، وموظفو الحكومة ، وأصحاب المهن . وما من شك فى أن رجال الأعمال كانوا فى القرن الثانى عشر ممن يعرفون القراءة والكتابة ، لأنهم كانوا يحتفظون بحسابات دقيقة محكمة . وكان الكتاب فى المنزل تحفة ثمينة ؛ وكان فى العادة يقرأ بصوت عال إلى عدد من المستمعين ؛ وقد وضع الكثير من قواعد الترقيم والأسلوب فيما بعد لتيسير القراءة الشفوية ؛ وكان يعنى كل العناية بتبادل الكتب بين الأسر بعضها وبعض ، وبين مختلف الأديرة ، والأقطار .

وكانت دور الكتب كثيرة العدد وإن قل حجمها . وكان القديس قد قرر أن يكون لكل دير بندكتى مكتبة ؛ وكانت بيوت الكارثوزيين والسسترسيين تجد فى جمع الكتب رغم كراهية القديس برنار للعلم ، كذلك كان لكثير من الكتدرائيات — أمثال كتدرائيات طليطلة ، وبرشلونة ، وبامبرج Bamberg وهلدسهايم Hildesheim — مكتبات كبيرة ؛ فكان فى كنيسة كنتربرى مثلا ٥٠٠٠ كتاب فى عام ١٣٠٠ ، ولكن هذا مثل نادر لا يقاس عليه[١٧] ؛ أما معظم المكتبات فكان فى الواحدة منها ما يقل عن مائة كتاب ؛ وكان فى مكتبة كلونى وهى من أحسن المكتبات ٥٧٠ مجلداً[١٨] . وكان عند مانفرد ملك

صقلية مجموعة قيمة انتقلت إلى البابوية وأضحت نواة مجموعة الفاتيكان اليونانية . وقد بدأت المكتبة البابوية فى عهد البابا دمسوس Damasus (٣٦٦ — ٣٨٤) ، ثم فقدت مخطوطاتها الثمينة ومحفوظاتها القيمة فى فوضى القرن الثالث عشر ، ولهذا يرجع تاريخ مكتبة الفاتيكان الحاضرة إلى القرن الخامس عشر . وشرعت الجامعات — أو على الأصح قاعات كلياتها — تنشئ لها مكتبات فى القرن الثانى عشر ، وأنشأ القديس لويس مكتبة سانت شابل Sainte Chapelle فى باريس ، وأغناها بالكتب التى أمر بنسخها من مائة دير ؛ وكانت كثير من المكتبات ، كمكتبات نتردام ، وسان جرمان ده پريه St. Germain des Prés والسربون مفتوحة للطلبة الموثوق بهم ، وكان من المستطاع استعارة الكتب فى الخارج بضمان واف : وإن طالب العلم اليوم ليصعب عليه أن يقدر قيمة الثروة الأدبية التى كانت المدينة والكلية تضعها بين يديه دون مقابل .

وكانت هناك مكتبات خاصة فى أماكن متفرقة ، وإنا لنجد فى ظلمات القرن العاشر نفسه جربرت Gerbert يجمع كتباً بحماسة محبى الكتب الحقة ؛ وكان لغيره من رجال الدين أمثال چون السلزبرى مجموعات خاصة بهم . كما كان لعدد قليل من النبلاء مكتبات صغيرة فى قصورهم ؛ وكان لفردريك بربروسا وفردريك الثانى مجموعات كبيرة ، وجمع هنرى الأرغونى مكتبة عظيمة حرقت علنا لاتهامه بالاتصال بالشيطان(١٩) . وجاء دانيل من أهل مورلى Morley إلى إنجلترا من أسپانيا فى عام ١٢٠٠ « بطائفة كبيرة قيمة من الكتب »(٢٠) . وكشفت أوربا فى القرن الثانى عشر ثروة أسبانيا العظيمة من الكتب فهرع العلماء إلى طليطلة ، وقرطبة ، وأشبيلة ، وعبرت جموع رجال العلم الجديد التى لا حصر لها جبال البرانس وأحدثت فى الحياة الذهنية فى بلاد الشمال التى كانت وقتئذ فى دور المراهقة انقلابا عظيم الأثر .

الفصل الثالث

المترجمون

كانت أوربا فى العصور الوسطى منقسمة نصفين أحدهما لاتينى والآخر يونانى وإن كانت تجمعها إلى حد ما لغة مشتركة . وكان النصفان متعادين ويجهل أحدهما الآخر . وقد نسى الشرق اليونانى التراث اللاتينى ما عدا القانون ، كذلك نُسى التراث اليونانى فى الغرب كله ما عدا الصقليتين ؛ لكن بعض هذا التراث اليونانى كان مختبئاً وراء أسوار المسيحية — فى بيت المقدس الإسلامية ، والإسكندرية ، والقاهرة ، وتونس ، وأسپانيا ؛ أما العالم الواسع الرقعة البعيد الشقة الذى يشمل الهند والصين واليابان ، والذى كان من عهد بعيد غنيا بالأدب والفلسفة والفن ، فلم يكد العالم المسيحى قبل القرن الثالث عشر يعرف عنه شيئاً .

واضطلع اليهود ببعض العمل الذى يهدف إلى ربط الثقافات المختلفة بعضها ببعض ، فقد كانوا ينتقلون بين هذه الثقافات تنقل مجارى الماء المخصبة تحت تربة الأرض . ولما كثر عدد اليهود المهاجرين من بلاد الإسلام إلى البلاد المسيحية ، ونسوا اللغة العربية ، رأى علماؤهم أنه يجدر بهم أن يترجموا المؤلفات العربية (التى ألف اليهود كثيراً منها) إلى اللغة التى لا يعرف علماء هذا الشعب المشتت غيرها وهى اللغة العبرية . ومن أجل هذا ترجم يوسف قمحى (١١٠٥ ؟ — ١١٩٠ ؟) فى نربونة كتاب « المرشد إلى واجبات القلب » تأليف الفيلسوف اليهودى بهية إلى تلك اللغة . وكان يوسف هذا والد أبناء من جلة العلماء ، ولكن أعلى منهم كعبا فى شؤون الترجمة أبناء يهوذا بن شاؤل بن طبون (١١٢٠ ؟ — ١١٩٠ ؟) ؛ وكان هو أيضاً قد هاجر من بلاد الأندلس الإسلامية إلى جنوبى فرنسا ؛ وهو وإن كان من أكثر أطباء عصره نجاحا فى مهنته كان له

من النشاط ما استطاع به ترجمة المؤلفات اليهودية العبرية لسعديه جاؤن ، وابن جبيرول ، ويهودا هليفي إلى اللغة العبرية . وأثار ابنه صمويل (١١٥٠ ؟ — ١٢٣٢) العالم اليهودي إلى ترجمة كتاب دلائل الحيران لابن ميمون إلى اللغة العبرية ، وترجم موسى بن طبون كتاب العناصر لإقليدس من اللغة العربية أيضا ، وترجم كتاب القانون الصغير لابن سينا ، وكتاب الترياق للرازى ، وثلاثة من مؤلفات ابن ميمون ، وشروح ابن رشد القصيرة لأرسطو . وتزعم يعقوب بن طبون حفيد صمويل حركة الكفاح من أجل ابن ميمون فى منپليه ، واشتهر بنبوغه فى علم الفلك ، ولكنه مع هذا ترجم عدداً من الرسائل العربية إلى اللغة العبرية ، كما ترجم بعضها إلى اللغة اليونانية . وتزوجت ابنة صمويل عالما أوسع شهرة من أبيها هو يعقوب أناضولى . وقد ولد يعقوب هذا فى مرسيلية حوالى عام ١١٩٤ ودعاه فردريك الثانى لتدريس اللغة العبرية فى جامعة نابلى ، وفيها ترجم إلى اللغة العبرية شروح ابن رشد الكبرى . وكان لهذه الشروح أبلغ الأثر فى الفلسفة اليهودية . وكانت ترجمة كتاب المنصورى للرازى على يد الطبيب الفيلسوف شم طب (١٢٦٤) فى مرسيلية حافزاً قويا إلى النهضة الطبية عند العبرانيين .

وترجمت إلى اللغة اللاتينية كثير من التراجم العبرية للكتب العربية من ذلك أن كتاب التيسير لابن زهر ترجم إلى اللغة اللاتينية فى پدوا (١٢٨٠) ؛ وفى بداية القرن الثالث عشر ترجم أحد اليهود أسفار العهد القديم كلها ترجمة حرفية من اللغة العبرية إلى اليونانية مباشرة . وتمثل لنا ترجمة كتاب كليلة ودمنة لبيدبا الطرق الملتوية التى كانت تسير فيها الهجرة الثقافية : فقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية من ترجمة أسبانية لترجمة لاتينية لترجمة عبرية ، لترجمة عربيـــة لترجمة فهلوية لترجمة للنسخة السنسكريتية المزعومة(٢١) .

أما التيار الرئيسى الذى صب به تيار الثروة الفكرية الإسلامية فى العالم الغربى فكان عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية . فقد ترجم قسطنطين الأفريقى حوالى عام ١٠٦٠ إلى اللغة اللاتينية كتاب الاعتبار للرازى وكتب إسحق يوديوس فى الطب ، وترجمة حنين العربية لأمثال أبقراط وشرح جالينوس . وجمع ريمند (١١٣٠ ؟) المستنير المتسامح كبير أساقفة طليطلة بعد استردادها من المسلمين طائفة من المترجمين برياسة دمنيكو جنديسلفى وعهد إليهم ترجمة الكتب العربية فى العلوم الطبيعية والفلسفية . وكان معظم هؤلاء المترجمين من اليهود الذين يعرفون اللغات العربية ، والعبرية ، والأسبانية ، بالإضافة إلى اللاتينية فى بعض الأحيان . وكان أكثر هذه الفئة نشاطاً أحد اليهود المتنصرين يدعى حنا الأسبانى (أو « الأشبيلى ») وقد حور الفلاسفة المدرسيون كنيته العربية وهى ابن داود فسموه أفنديث Avendeath . وقد ترجم حنا هذا مكتبة حقة من مؤلفات ابن سينا ، والغزالى ، والفارابى ، . . . والخوارزمى عن أصولها العربية أو عن تراجمها اليهودية . وأدخل بترجمته لكتاب الخوارزمى الأرقام الهندية — العربية فى بلاد الغرب . ولا يقل هذا الكتاب أثراً عن ترجمته لكتاب مدسوس على أرسطو فى الفلسفة والأسرار الخفية يدعى Secretum Secretorum وهو كتاب يدل على سعة انتشاره بقاء مائتى نسخة مخطوطة منه . وكانت بعض الكتب تترجم من العربية إلى اللاتينية مباشرة ، وبعضها يترجم إلى اللغة القشتالية ثم يترجمها غنديسلوى إلى اللاتينية . وبهذه الطريقة حول العالمان كتاب حكور حاتم فأصبح Fon Vitae أو ينبوع الحياة وبه أصبح ابن جبيرول « Avicebron » من أشهر الفلاسفة فى محيط الفلسفة الكلامية .

وكانت هناك روافد أخرى تغذى هذا التيار اللاتينى العربى . من ذلك أن

عالما من باث Bath يدعى أبلار تعلم العربية فى أنطاكية ، وطرسوس ، وطليطلة ثم نقل كتاب إقليدس من العربية إلى اللاتينية (١١٢٠) فكانت هذه الترجمة أول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب ؛ وهو الذى أدخل حساب المثلثات من بلاد المسلمين إلى الغرب بترجمته أزياج الخوارزمى (١١٢٦)[٢٣] .

وفى عام ١١٤١ قام بطرس الموقر رئيس دير كلونى هو وثلاثة من العلماء المسيحيين يساعدهم أحد علماء العرب بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية . ودخل علم الكيمياء والكيمياء الكاذبة العالم اللاتينى بترجمة ربرت من أهل تشستر أحد الكتب العربية فى عام ١١٤٤ . وبعد عام من ذلك الوقت قام رجل إيطالى يدعى أفلاطون التيڤولى بترجمة رسالة هيورها مشيحه العظيمة الشأن لمؤلفها أبراهام بارحيا .

وكان أعظم المترجمين على بكرة أبيهم رجلا يدعى حرار من أهل كريمونا . ذلك أنه لما قدم هذا الرجل إلى طليطلة حوالى ١١٦٥ أعجبه بثروة العرب فى العلوم والفلسفة فصمم على أن يترجم خير ما فى هذه الثروة إلى اللغة اللاتينية ، وقضى فى هذا العمل التسع السنين الباقية من حياته ؛ فتعلم اللغة العربية واستعان كما يبدو بمسيحى من أهل المدينة وبآخر يهودى[٢٤] .

وليس من المعقول أن يكون هو الذى ترجم الكتب الواحد والسبعين من غير أن يعاونه فيها أحد . ومهما يكن من شىء فإن الغرب مدين له بالتراجم اللاتينية للتراجم العربية لكتب أرسطو فى التحليلات ، وفى السموات والأرض ، والكون والفساد ، والمتيورولوجيا ؛ وبطائفة من الشروح لاسكندر الأفروديسى ، والعناصر والفروض لإقليدس ، وقياس الدائرة لأرخميدس ، والمخروطات لأپلونيوس البرجاوى ، وأحد عشر كتاباً معزوة إلى جالينوس ، وعدة مؤلفات فى الفلك يونانية الأصل ، وأربعة مجلدات يونانية — عربية فى الطبيعة ، وأحد عشر كتاباً فى الطب عند العرب ، من بينها أكبر كتب الرازى وابن سينا والفارابى

وثلاثة من كتب الكندى ، وكتابين لإسحاق إسرائيلى ، وأربعة عشر كتاباً فى الرياضة والهيئة عند العرب ، وثلاث مجموعات من الأزياج الفلكية ، وسبعة مؤلفات عربية فى الهندسة والفلك ؛ وقصارى القول أن ليس فى التاريخ كله رجل أغنى بمفرده ثقافة بأخرى كما فعل چرار هذا . ولا يضارع چرار فى عمله هذا إلا عمل حنين بن إسحق ، وعمل « بيت الحكمة » الذى أنشأه الميمون ، وهما اللذان صبا العلوم والفلسفة اليونانية فى القالب العربى .

ويلى أسپانيا فى مزج الثقافات على هذا النحو مملكة الصقليتين النورمانية . ذلك أن حكام النورمان لم يكادوا يفتحون الجزيرة (١٠٩١) حتى استخدموا مترجمين ليقوموا بترجمة المؤلفات العربية واليونانية فى الرياضة والهيئة المنتشرة فى پالرم إلى اللغة اللاتينية . وواصل فردريك الثانى هذا العمل فى فوجيا Foggia واستقدم إلى بلاطه للقيام به وبغيره من الأعمال عقلا من أعجب العقول وأكثرها نشاطا فى أوائل القرن الثالث عشر ونعنى بصاحب هذا العقل ميخائيل اسكت . وقد اشتق اسم هذا الرجل من موطنه الأصلى فى اسكتلندة ؛ وتراه فى طليطلة عام ١٢١٧ وفى بولونيا عام ١٢٢٠ ، وفى رومة من ١٢٢٤ إلى ١٢٢٧ ، ثم تراه بعدئذ فى فوجيا أو نابلى . وكان أول ما ترجمه كتاب الأجسام الكرية للبطروجى وهو نقد كتاب بطليموس ، وأعجب اسكت بما يمتاز به تفكير أرسطو من حرية واتساع فى الأفق فترجم إلى اللغة اللاتينية الترجمة العربية لكتاب تاريخ الحيوان لأرسطو بما فيه « أجزاء الحيوان » و « توالد الحيوان » ، وتعزو إليه رواية غير محققة تراجم كتب « ما وراء الطبيعة » ، و « الطبيعة » و « النفس » ، و « والسموات » ، ولعله ترجم كذلك كتاب « الأخلاق » . ووصلت تراجم ميخائيل لكتب أرسطو إلى ألبرتس مجنس وروچر بيكن ، وكان لها أثر كبير فى الحركة العلمية فى القرن الثالث عشر . وواصل شارل صاحب أنجو مناصرة الترجمة فى جنوبى إيطاليا ، وعمل له فى هذا العالم اليهودى موسى من أهل سلرنو ، وأكبر الظن أن

شارل هو الذى قدم المال اللازم لترجمة الموسوعة الطبية الضخمة (١٢٧٤) للرازى وهى المعروفة باسم «كتاب الحاوى» إلى اللغة اللاتينية على يد العالم اليهودى فرج بن سالم الجرجنتى .

وكانت جميع التراجم اللاتينية السالفة الذكر لعلوم اليونان وفلسفتهم منقولة عن التراجم العربية — وكان منها ما هو ترجمة عربية للترجمة السريانية للأصل الذى يكتنفه الغموض . ولم تكن هذه التراجم خالية من الدقة إلى الحد الذى اتهمها به روجر بيكن ؛ ولكن ما من شك فى أن الحاجة كانت منذ ذلك الوقت ماسة إلى تراجم من الأصل مباشرة . وكان من بين أقدم هذه التراجم الأصلية ترجمة كتب أرسطو على يد جيمس الذى لا نعرف عنه أكثر من أنه «كاتب من البندقية» قبل عام ١١٢٨ . وفى عام ١١٥٤ ترجم يوجين «أمير» پالرم كتاب بطليموس فى «البصريات» ، ثم اشترك فى عام ١١٦٠ فى ترجمة لاتينية لكتاب المجسطى من اللغة اليونانية مباشرة . وكان أرستيس من أهل قطانيا قد ترجم فى الوقت عينه (١١٥٦ ؟) كتاب حياة الفلاسفة لديوجنيز لبرتيوس وكتاب مينون وفيدون لأفلاطون . ولم يؤثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى الترجمة بالقـــدر الذى كان يحق لنا أن نتوقعه ؛ فنحن لم نسمع إلا عن ترجمة جزء من كتاب الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) لأرسطو (١٢٠٩) ؛ وأعقبت ذلك فترة مجدبة شرع بعدها فى عام ١٢٦٠ وليم الموربيكى William of Moerbeke كبير أساقفة كورنث الفلمنكى يعاونه فى أغلب الظن عدد من المترجمين بترجمة طائفة من الكتب عن اللغة اليونانية مباشرة . وإن عدد هذه التراجم وأهميتها لتنزلانه بين أبطال نقل الثقافة منزلة لا تعلو عليها إلا منزلة چرارد الكريمونى . وكانت استجابته لطلب صديقه وزميله الراهب الدمنيكى تومس أكوناس من الأسباب التى حملته على ترجمة عدد كبير من مؤلفات أرسطو

تاريخ الحيوانات ، وتوالد الحيوانات ، والسياسة ، والبلاغة ، وعلى إتمام ترجمة بعض التراجم السابقة أو مراجعتها : الميتافيزيقا والميترولوجية (الأرصاد الجوية) وفى النفس . وترجم للقديس تومس عدة شروح على كتب أرسطو وأفلاطون ؛ وأضاف إلى هذه الأعمال الكثيرة تراجم لكتاب التشخيص لأبقراط وكتاب جالينوس فى الطعام وعدة مؤلفات فى علم الطبيعة لهيرون الإسكندرى وأرخميدس . ولعلنا مدينون له أيضاً بترجمة لكتاب الفلاح لأرسطو كانت تعزى من قبل إلى ربرت جروستستى ، وكانت هذه التراجم جزءاً من المادة التى بنى عليها تومس كتابه العظيم الأثر فى اللاهوت . ولم يحل عام ١٢٨٠ حتى كانت كتب أرسطو كلها تقريباً فى متناول العقل الغربى .

وقد أحدثت هذه التراجم كلها فى أوربا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر ، ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر فى استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم ؛ وكان لا بد أن تحدث تطورات جديدة فى النحو وفقه اللغة ، ووسعت نطاق المناهج الدراسية ، وأسهمت بنصيب فى نشأة الجامعات ونمائها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وكان عجز المترجمين عن أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدى المعانى التى يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذى أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية فى اللغات الأوربية ؛ ولم يكن هذا أكثر من حادث عارض فى أعمال الترجمة ، ولكن أهم من هذا أن الجبر ، وعلامة الصفر ، والنظام العشرى فى الحساب قد دخلت كلها فى بلاد الغرب المسيحية بفضل هذه التراجم ، وأن الطب من ناحيته النظرية والعملية تقدم تقدما عظيما بفضل ما قام به العلماء المترجمون اليونان ، واللاتين ، والعرب ، واليهود ، وأن ما كان لعلم الهيئة اليونانى والعربى من شأن خطير قد أحدث ، وكان لا بد أن يحدث ، توسعا فى علوم الدين ، وفى تعديل أفكار العلماء عن

الإله ، وكان ذلك إرهاصا بتغيير فى هذه الناحية أوسع مدى جاء بعد عهد كوپرنيق . وإن فى إشارات روچر بيكن المتكررة لابن رشد ، وابن سينا ، والفارابى لدليلا على ما كان لهؤلاء العلماء من تأثير وحافز جديد . وفى ذلك يقول روچر بيكن نفسه : « لقد جاءت إلينا الفلسفة من العرب »(٢٥) ، وسنرى أن الذى دعا تومس أكويناس لتأليف كتابه الجامع فى اللاهوت هو أن يحول دون تسرب التفاسير العربية لأرسطو إلى علوم الدين المسيحية. وهكذا ردّ الإسلام إلى أوربا ما أخذه عن اليونان بطريق بلاد الشام ؛ وكما أن هذه العلوم كانت بداية ذلك العصر العظيم عصر العلوم والفلسفة العربية ، كذلك أثارت هذه التراجم عقل أوربا وحفزته إلى البحث والتفكير ، وأرغمته على أن يشيد ذلك الصرح العقلى الخطير صرح الفلسفة المدرسية ، وأن ينقض ذلك الصرح الفخم حجراً بعد حجر ، فينهار بذلك نظام العصور الوسطى الفلسفى فى القرن الرابع عشر ، وتبدأ الفلسفة الحديثة فى غمرة التحمس العظيم أثناء عصر النهضة .

obeikandl.com

الفصل الرابع

المـــدارس

وكان الذى يقوم بنقل الحضارة من جيل إلى جيل الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة . وكان يعنى عناية خاصة بالتربية الخلقية فى العصور الوسطى ، على حساب الثقافة العقلية ، كما يعنى اليوم بالتربية العقلية ، على حساب التأديب الخلق.. ولم يكن من غير المألوف فى إنجلترا بين الطبقات الوسطى والعليا أن يرسل الولد فى سن السابعة أو نحوها ليربى وقتاً ما فى بيت غير بيته ؛ وكان الغرض المقصود من هذا تمكين الروابط بين الأسر من جهة ، وإبعاد الولد عن اللين المنبعث من حنان الأبوين من جهة أخرى(٢٦) . وكان نظام المدارس الفخم الذى أنشأته الإمبراطورية الرومانية قد انهار فى خلال الفوضى الناشئة من الغارات ومن نقص سكان المدن ، ولما أن هدأت موجة الهجرة فى القرن السادس بقيت قلة من المدارس العلمانية فى إيطاليا ؛ وكان معظم الباقى مدارس لتعليم المعتنقين الجدد للدين المسيحى وقساوسة المستقبل . وظلت الكنيسة فترة من الزمن (٥٠٠ — ٨٠٠) تخص بعنايتها التدريب الأخلاقى ، ولم تكن ترى أن نقل العلوم الدنيوية من واجباتها ، ولكن الكتدرائيات ، والأديرة ، وكنائس الأبرشيات وأديرة النساء ، قد حفزها شارلمان إلى فتح أبوابها لتعليم البنين والبنات تعليما عاما .

وحملت مدارس الأديرة وحدها فى أول الأمر هذا العبء كله تقريباً .

وكانت المدارس نوعين مدرسة داخلية تهيئ التعليم للمستجدين ومن ينذرهم آباؤهم للرهبنة أو الكنيسة ، ومدرسة خارجية تعلم الأولاد من غير أجر على

ما يظهر(٢٧) . ونجت مدارس الأديرة الألمانية من اضطرابات القرن التاسع ، وأسهمت بنصيب مثمر فى النهضة الأتونية Ottonian ؛ وكانت ألمانيا فى القرنين التاسع والعاشر تعلو على فرنسا فى كل ما يزين العقل ، ذلك أن انحلال البيت الكارولنجى فى فرنسا ، وغارات أهل الشمال ، كانا ضربتين قويتين وجهتا إلى مدارس الأديرة ، ولهذا لم تبق مدرسة القصر التى أنشأها شارلمان فى بلاط الفرنجة بعد أن مات شارل الأصلع (فى عام ٨٧٧) . وزادت الأسقفيات الفرنسية قوة كلما زاد الملوك ضعفا ، ولما أن وقفت غارات أهل الشمال كان الأساقفة ورجال الدين فى خارج الأديرة أغنى من رؤساء الأديرة ومن الأديرة نفسها ، ولهذا قامت مدارس الكتدرائيات فى القرن العاشر فى باريس ، وشارتر ، وأورليان ، وتور ، ولاوُن ، وريمس ، ولييج ، وكولونى ؛ على حين أن مدارس الأديرة ضعفت فى ذلك القرن ؛ ولما توفى فلبرت الصالح العظيم فى شارتر ، احتفظ الأسقف إيڤو Ivo بالمستوى الرفيع وبحسن السمعة اللذين نالتهما مدرسة كتدرائيتها فى الدراسات اليونانية والرومانية القديمة ، وجرى برنار أسقف شارتر الذى خلف إيڤو على تقاليد سلفه الطيبة ؛ وقد وصف حنا السلزبرى برنار هذا فى القرن الثانى عشر بقوله إنه « فى الوقت الحاضر أغزر منبع للآداب فى غالة وأعظم هذه المنابع روعة »(٢٨) . وفى إنجلترا ذاعت شهرة مدرسة يورك حتى قبل أن تعير ألكوين إلى شارلمان ؛ وكادت مدرسة كنتربرى تصبح جامعة ذات مكتبة كبيرة ، وكان أمينها هو الرجل العظيم حنا السلزبرى السالف الذكر ، وهو رجل من أعظم العلماء والفلاسفة عقلا فى العصور الوسطى . ويبدو أن الطلاب الذين يهيأون لأن يكونوا قساوسة كان ينفق عليهم من أموال الكتدرائية ؛ أما غيرهم من الطلاب فكانوا يؤدون أجوراً قليلة . وقد أصدر مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) قراراً يقول : « لكى لا يحرم الأطفال الفقراء من فرصة القراءة والرقى . . . يجب أن يخصص مرتب كاف لمدرس يعلم بالمجان من يعدون لممارسة مهنة الكهانة

وللفقراء من التلاميذ »[٢٩] وطالب مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) بأن ينشأ كرسي للنحو فى كل كتدرائية من كتدرائيات العالم المسيحي ، وأمر كل كبير أساقفة بأن يكون لديه كرسيان للفلسفة والقانون الكنسى[٣٠] . وحض البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) فى أوامره السامية كنائس الأبرشيات على أن تنشئ مدرسة للتعليم الأولى ، وتدل البحوث الحديثة على أن مدارس الأبرشيات هذه — المخصصة أولا للتعليم الدينى — كانت منتشرة فى جميع أنحاء العالم المسيحى[٣١] .

ترى ماذا كانت نسبة المراهقين من الأهلين الذين كانوا يؤمون هذه المدارس ؟ أما البنات فلم يكن يذهب إليها فيما يبدو إلا بنات الطبقة الموسرة ، وكانت معظم الأديرة تنشئ مدارس للبنات كالمدرسة التى فى أرجنتى Argenteuil ؛ وعلمت هلواز الآداب القديمة تعليما ممتازاً (حوالى عام ١١١٠) ، ولكن أغلب الظن أن هذه المدارس لم تدخلها إلا نسبة صغيرة من البنات . ومن مدارس الكتدرائيات ما كانت تقبل البنات ، فها هو ذا أبلار يحدثنا عن « النساء الشريفات المولد » اللائى كن يذهبن إلى مدرسة نتردام فى باريس عام ١١١٤[٣٢] . أما الأولاد فكانوا أحسن حظا من البنات ، ولكن يبدو أن ابن رقيق الأرض كان يصعب عليه أن ينال تعليما ما[٣٣] . وإن كنا نسمع أن بعض الأرقاء استطاعوا أن يلحقوا أبناءهم باكسفورد[٣٤] . وكان كثير من المواد التى تعلم الآن فى المدرسة يعلم وقتئذ فى المنزل أو بالتدرب فى الحوانيت ؛ ولا ريب فى أن انتشار الفنون فى العصور الوسطى والدرجة الرفيعة التى بلغتها يوحيان بأنه كان ثمة فرص واسعة للتدرب على الفنون والحرف . وتقدر إحدى الإحصاءات عدد الأولاد الملتحقين بالمدارس الأولية بإنجلترا فى عام ١٥٣٠ بستة وعشرين ألفاً من بين سكانها الذين يقدرون فى ذلك الوقت بخمسة ملايين ، أى بجزء من ثلاثين جزء من سكانها فى عام ١٩٣١[٣٥] ؛ ولكن دراسة حديثة لهذا

الموضوع تقول إن « القرن الثالث عشر كان أقرب إلى التعليم الشعبي والاجتماعي من القرن السادس عشر »(٣٦) .

وكان قس من قساوسة بيت الكتدرائية هو الذى يدير مدرسة الكتدرائية عادة ؛ وكان يسمى بأسماء مختلفة هي ارشكولا (كبير المدرسة) Archiscola أواسكلاريوس scolarius أواسكلاستكس Scolasticus (المدرس) . وكان التعليم كله باللغة اللاتينية ؛ وكان التأديب صارما ، فكان الضرب يعدّ من مستلزمات التعليم كما كانت الجحيم من مستلزمات الدين ، ومن أجل هذا كانت مدرسة ونشستر تحيي طلابها ببيت من الشعر سداسي الأوتاد صريح في معناه وهو : «Aut disce, an discede manet sors tertia caedi» ومعناه « تعلّم أو ارحل والثالثة التى تختارها هى أن تضرب » . وكان المنهج يبـــدأ بالمجموعة الثلاثية — النحو والبلاغة ، والمنطق — ؛ ثم ينتقل الطالب بعدها إلى « المجموعة الرباعية » — الحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك ؛ وكانت هذه هى « الفنون الحرة السبعة » . على أن هذه المصطلحات لم تكن لها فى ذلك الوقت نفس المعنى الذى لها فى الوقت الحاضر . فأما المجموعة الثلاثية Trivium فكان معناها بطبيعة الحال أنها مكونة من ثلاث طرق ، وأما الفنون الحرة فهى التى عرفها أرسطو قبل ذلك الوقت بأنها المواد الخليقة بالأحرار الذين لا يجرون وراء المهارات العملية (وكانت هذه تترك لصبيان الصناعات) ، بل يسعون وراء التفوق العقلى والخلقى(٢٨) . وكان فارو (١١٦ — ١٢٧ ق . م) قد كتب سبعة كتب فى التأديب ذكر فيها سبع دراسات وصفها بأنها تؤلف المنهج اليونانى الرومانى . وكتب مارتيانس كابلا Martianus Capella فى القرن الخامس الميلادى كتاباً فى مبادئ التربية نحا فيه منحى الاستعارة والتشبيه وكانت له شهرة واسعة وسماه « فى زواج الفلسفة وعطارد On the Marriage of Philosophy and Mercury » ، وأخرج الطب والعمارة من مناهج التعليم لأنهما دراستان

obeikandi.com

عمليان أكثر مما يجب أن تكون الدراسات ، وبقيت بعد السبع الدراسات الشهيرة . ولم يكن « النحو » هو الدراسة المملة التى تضيع فيها روح اللغة بدراسة عظامها ، بل كان هو فن الكتابة (gramma, graphs) ؛ وقد عرفه كسيودورس بأنه هو دراسة العظيم من الشعر والخطابة دراسة تمكن الإنسان من أن يكتب كتابة صحيحة ظريفة . وكانت هذه الدراسة تبدأ فى مدارس العصور الوسطى بالمزامير ، ثم تنتقل إلى غيرها من أسفار الكتاب المقدس ، ثم إلى كتب آباء الكنيسة اللاتين ، ثم إلى الآداب اللاتينية القديمة — شيشرون ، وفرجيل ، وهوراس ، واستانيوس ، وأوفد . وظل معنى البيان هو فن الحديث ، ولكنه كان يشمل أيضاً دراسة واسعة فى الأدب . ويبدو أن المنطق كان من الموضوعات الراقية التى لايمكن أن تشملها المجموعة الثلاثية . ولكن يبدو أنه كان من الخير للتلاميذ أن يتعلموا اتباع قواعد المنطق حين يبدءون يحبون الجدل .

وأدخلت الثورة الاقتصادية شيئا من التغيير فى ميدان التعليم ، فقد أحست المدن التى تعيش بالعمل فى التجارة والصناعة بحاجتها إلى موظفين ذوى تدريب عملى ؛ ولهذا أنشأت ، رغم معارضة قوية من جانب الكنيسة ، مدارس زمنية يعلم فيها مدرسون علمانيون نظير أجور يتقاضونها من آباء التلاميذ . وكان الأجر السنوى فى المدرسة العامة التى فى مرتبة المدارس الثانوية بأكسفورد نحو أربعة بنسات أو خمسة (٤ ١/٢ دولار أمريكى) ؛ وقد أحصى فلانى Villani فى عام ١٢٨٣ تسعة آلاف ولد وبنت فى مدارس الكنائس بفلورنس ، و١١٠٠ فى ست من مدارس « المعمرات » التى تهيؤهم للاشتغال بالأعمال التجارية والمالية ، و٥٧٥ تلميذاً فى المدارس الثانوية . ونشأت المدارس الزمنية فى فلاندرز فى القرن الثانى عشر ؛ ولم يحل النصف الثانى من القرن الثالث عشر حتى كانت هذه الحركة قد انتشرت فى لوبك Lübeck ومدن البحر البلطى . ونقرأ فى عام ١٢٩٢ عن معلمة تدير مدرسة خاصة فى باريس ، وسرعان ما أضحت هذه واحدة من كثيرات مثالها(٣٩) ، فقد أخذ تحول التعليم إلى الناحية الدنيوية يجرى مجراه .

الفصل الخامس

جامعات الجنوب

وكانت المدارس غير الدينية كثيرة فى إيطاليا بنوع خاص ؛ وكان مدرسوها فى العادة من غير رجال الدين بخلاف ما كانت عليه الحال فيما وراء الألب ؛ كما كانت الروح والثقافة الإيطاليتان بوجه عام أقل فى نزعتهما الدينية مما كانت عليه الحال فى غير إيطاليا من البلاد . بل ذهب البعض إلى أكثر من هذا فحدث حوالى عام ٩٧٠ أن نظم رجل يدعى ڤلجاردس Vilgardus حركة فى راڤنا تهدف إلى إعادة الوثنية[١٠] . وكان فى البلاد بطبيعة الحال كثير من مدارس الكتدرائيات ، وكانت مدارس كتدرائيات ميلان ، وباڤيا ، وأوستا Aosta ، وپارما ذات كفاية خاصة ، وفى وسعنا أن نحكم على مقدار هذه الكفاية إذا عرفنا أن من خريجيها لافرانك وأنسلم ، وكادت مدرسة مُنتى كازينو فى عهد دزدريوس تكون جامعة . ولقد تضافر بقاء الأنظمة البلدية ، ونجاح المدن اللمباردية فى مقاومة بربرسا (١١٧٦) ، والطلب المتزايد على المعلومات القانونية والتجارية ، تضافرت هذه العوامل كلها على أن تنيل إيطاليا شرف السبق فى مضمار إنشاء الجامعات فى العصور الوسطى .

ولقد احتفلت جامعة پدوا فى عام ١٩٤٥ بالعيد المتمم للمائة بعد الألف من إنشائها على يد لوثير الأول Lothair I . وأكبر الظن أنها كانت مدرسة حقوق لا جامعة ، ولم تتلق المرسوم الذى يجعلها مدرسة عامة إلا فى عام ١٣٦١ . وكان هذا هو الاسم الذى يطلق فى العصور الوسطى على الجامعة التى تضم عدداً من الكليات المختلفة ، وكانت إحدى المدارس الكثيرة التى شرعت من القرن

obeikandi.com

التاسع عشر وما بعده تحيي دراسة القانون الروماني : مدارس رومة ، ورافنا ، وأورليان في القرن التاسع ؛ ومدارس ميلان ، ونربونة ، وليون Lyons في القرن العاشر ؛ ومدارس ڤرونا ، ومنتوا ، وأنجرس Ongers في القرن الحادي عشر. ويبدو أن بولونيا هي أولى مدائن غربي أوربا التي وسعت مدرستها فجعلتها مدرسة عامة ، وفي ذلك يقول المؤرخ الإخباري أودوفريدوس Odsfredus في عام ١٠٧٦ : « شرع مدرس يدعى پيپو Pepo يحاضر القانون على مسئوليته الخاصة . . . في بولونيا ، وكان من أعظم الرجال شهرة »(٤١) . ثم انضم إليه غيره من المدرسين ، حتى غدت مدرسة الحقوق في بولونيا قبل أيام إرنريوس Irnerius بإجماع الآراء خير مدارس أوربا على الإطلاق ؛

وبدأ إرنريوس يدرس القانون في بولونيا عام ١٠٨٨ ، وانحاز في تدريسه من جانب الحلف إلى جانب الجبلين ، وفسر فقه القانون الذي عاد وقتئذ إلى الحياة تفسيراً يتفق ومصلحة المطالب الإمبراطورية . ولسنا نعلم أكان منشأ هذا العمل من جانبه أن دراسة القانون الروماني أقنعته بقوة الحجج التاريخية والعملية التي تؤيد تفوق السلطة الإمبراطورية على السلطة الدينية ، أم أن المكافآت التي تتيحها له الخدمة الإمبراطورية قد أغرته بهذا الانحياز ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فإن الأباطرة الذين قدروا له عمله أغدقوا المال على المدرسة ، وهرع عدد كبير من الطلاب الألمان إلى بولونيا . وألف إرنريوس مجلداً في التأويلات أو الشروح على كتاب القوانين لجستنيان وطبق الطريقة العلمية على تنظيم القانون . ويعد كتاب قوانينه الذي جمعه هو أو جمع من محاضراته آية من آيات العرض الجيد والحجج القوية .

وبدأ بإرنريوس العصر الذهبي في التشريع أثناء العصور الوسطى ، وأقبل الرجال على بولونيا من جميع بلاد أوربا اللاتينية ليتلقوا فيها علم القانون الذي عاد

وقتئذ إلى شبابه ، وطبق جراتيان تلميذ إرنريوس الأساليب الجديدة على التشريع الكنسى ، ونشر (١١٣٩) المجموعة الأولى من القانون الكنسى .

وجاء بعد إرنريوس « العلماء الأربعة » — بلجارس Bulgarus ، ومرتينس Martinus ، وياقوبس Jacobus ، وهو جو Hugo — بسلسلة من التأويلات الذائعة الصيت بتطبيق دستور جستنيان على المشاكل التشريعية فى القرن الثانى عشر ، وأفلحوا فى إدخال القانون الرومانى إلى ميدان مطرد الاتساع .

وجمع أكرسيوس Acoursius الأكبر (١١٨٥ ؟ — ١٢٦٠) ، أعظم « الشراح » فى بداية القرن الثالث عشر ، أعماله هو وأعمالهم فى شروح عامة أصبحت هى المرجع المعتمد الذى استعان به الملوك والعامة على تحطيم سلطان القانون الإقطاعى ، ومحاربة سلطان البابوات . وبذلت البابوية كل ما تستطيع من الجد لتعطل حركة بعث القانون الذى يجعل الدين عملا من أعمال الدولة وخادما لها ، ولكن الدراسة الجديدة غذت النزعة العقلية وحركة التحول إلى الناحية الدنيوية اللتين قامتا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكانت هى المعبرة عنهما ، وأوجدت طبقة من المحامين أخذت تتضاعف على مر الأيام وتجد فى تخفيض نصيب الكنيسة فى الحكم وتوسيع سلطان الدولة : ووصل الأمر إلى حد شكا معه القديس برنار من أن محاكم أوربا تدوى بشرائع جستنيان ، ولم تعد تسمع قوانين الله[٤٢] . وكان انتشار فقه القانون الجديد حافزاً إلى خلق روح الاحترام للقانون ، والشغف باتباع العقل لا يقل فى قوته عن تراجم الكتب العربية واليونانية ، وكان هذا الشغف هو الذى أوجد الفلسفة المدرسية الكلامية وقوض بعدئذ أركانها .

ولسنا نعلم متى قامت مدرسة للفنون — أى الفنون السبعة الحرة ، فى بولونيا ، كما لا نعلم أيضاً متى أنشئت مدرسة الطب الشهيرة بهذه المدينة . ومبلغ علمنا أن الصلة الوحيدة التى قامت بين المدارس الثلاث كانت تنحصر فى أن يتسلم خريجو كل واحدة منها درجاتها العلمية من وكيل الأسقف فى بولونيا . وقد نظم

الأساتذة أنفسهم فى نقابة كنقابات الحرف ، وحوالى علم ١٢١٥ نظم طلبة كل كلية أنفسهم فى اتحاد طلاب جنوب الألب أو اتحاد طلاب ما وراء الألب . وضمت هذه « الجامعات » من بداية القرن الثالث عشر طالبات وطلاباً ، وكان فى كليات بولونيا فى القرن الرابع عشر أستاذات[٤٣] .

وأنشئت نقابات الطلاب فى بداية الأمر لتقوم بواجب الحماية المتبادلة لهم وتمكينهم من حكم أنفسهم بأنفسهم ؛ ثم صار لها فى القرن الثالث سلطة عظيمة على هيئة التدريس ؛ فقد كان فى مقدور الطلبة أن يحولوا بين أى إنسان وبين الاستمرار فى حياة التدريس فى بولونيا بالمقاطعة المنظمة لمن لا يرضيهم من المدرسين . هذا إلى أن مرتبات الأساتذة كانت فى كثير من الأحيان تؤديها « جامعات الطلاب » ، وكان الأساتذة يرغمون على أن يقسموا أن يطيعوا « مديرى الجامعات » أى رؤساء نقابات الطلاب[٤٤] . وكان على المدرس الذى يرغب فى إجازة للتغيب عن العمل ، وإن لم تزد على يوم واحد ، أن يحصل على إذن بذلك من تلاميذه عن طريق رؤساء نقاباتهم . وكان يحرم عليه تحريماً صريحاً أن « يبتدع عطلات بمحض رغبته »[٤٥] . وكانت اللوائح التى تضعها نقابات الطلاب تحدد الدقيقة التى يبدأ فيها المدرس محاضرته ، والتى ينتهى فيها من هذه المحاضرة ، ونوع العقوبات التى تفرض عليه إذا خالف هذه القواعد . وكانت قوانين النقابات تأمر الطلاب أن يغادروا قاعة الدرس إذا أطال الأستاذ محاضرته عن الوقت المحدد لها . وكانت لوائح النقابات تفرض غرامة على المدرس إذا ترك فصلا أو مرسوماً فى شرحه القوانين ؛ كما كانت تحدد مقدار ما يخصص من المنهج لكل جزء من أجزاء الكتب المقررة . وكان يطلب إلى الأستاذ فى بداية كل سنة جامعية أن يودع أمانة قدرها عشرة جنيهات فى أحد مصارف بولونيا ، تخصم منها الغرامات التى يفرضها عليه رؤساء نقابات الطلاب ، ويرد إليه ما يبقى منها فى نهاية العام الدراسى بناء على أوامر أولئك الرؤساء . وكان لجان من الطلاب

تعين لمراقبة سلوك كل مدرس وتبلغ رؤساء النقابات كل ما تراه من شذوذ أو عيب فى هذا السلوك(٤٦) . وإذا ما بدت هذه القواعد لطالب هذه الأيام معقولة إلى درجة غير عادية . وجب عليه أن يذكر أن طلاب الحقوق فى جامعة بولونيا كانوا رجالا بين السابعة عشرة والأربعين من عمرهم ، وأنهم كانوا فى سن يستطيعون وهم فيها أن يؤدبوا أنفسهم ؛ وأنهم جاءوا للدرس لا للعب ، وأن الأستاذ لم يكن موظفاً عند أمناء الجامعة ، بل كان محاضراً حراً يؤجره الطلبة فى واقع الأمر لكى يعلمهم . وكان مرتب المدرس فى بولونيا يتكون من الأجور التى يؤديها طلابه ويحددها اتفاق يعقد معهم . ثم غير نظام الأداء حوالى آخر القرن الثالث عشر حين عرضت المدن الإيطالية ، حرصاً منها على أن يكون لها جامعات خاصة بها ، مرتبات تؤديها البلديات إلى بعض أساتذة بولونيا ؛ فما كان من مدينة بولونيا نفسها وقتئذ (١٢٨٩) إلا أن وعدت بأداء مرتب سنوى لاثنين من الأساتذة ؛ ولكن اختيار الأساتذة ظل متروكا للطلاب ، وزاد عدد هذه المرتبات السنوية الى تؤديها البلديات شيئاً فشيئاً ، حتى إذا كان القرن الرابع عشر انتقل اختيار الأساتذة وانتقلت مرتباتهم إلى المدينة نفسها . ولما أصبحت بولونيا جزءاً من الولايات البابوية فى عام ١٥٠٦ صار تعيين الأساتذة من اختصاص السلطات الكنسية .

بيد أن جامعة بولونيا انطبعت فى القرن الثالث عشر بروح علمانية تكاد تكون معادية للكنيسة ، وقلما نجدها فى غيرها من المراكز التعليمية الأوربية . وجرى غيرها من جامعات إيطاليا على هذا النسق وإن لم يبلغ فيه ما بلغته جامعة بولونيا . فبينا كانت كلية أصول الدين أهم الكليات فى هذه الجامعات الأخرى ، لم يكن فى بولونيا كلية دينية على الإطلاق قبل عام ١٣٦٤ ، بل حل القانون الكنسى فيها محل علم اللاهوت ؛ وحتى علم البيان نفسه قد اتخذ صورة القانون ، بل إن فن الكتابة نفسه أضحى — فى جامعات بولونيا ، وباريس ، وأورليان ،

ومنبلييه ، وتور ، . . . فن كتابة الوثائق القانونية ، أو التجارية والمالية ، أو الرسمية ؛ وكانت درجات جامعية خاصة تمنح فى هذا الفن[٤٧] .
وكان من الأقوال الشائعة أن أقرب ما يمكن الحصول عليه من تعليم إلى الأحوال الواقعية هو الذى يتلقاه الطلاب فى بولونيا ؛ وتروى إحدى القصص المتداولة أن أحد علماء التربية الباريسيين نقض فى بولونيا ما علمه فى باريس ، ثم عاد إلى باريس فنقض فيها ما علمه فى بولونيا[٤٨] . وتزعمت بولونيا فى القرن الثانى عشر الحركة العقلية فى أوربا ، فلما كان القرن الثالث عشر تركت تعليمها يجمد حتى أضحى فلسفة للقانون مدرسية كلامية آسنة ، وحتى أضحت الشروح الأكورسية نصاً مقدساً لا يكاد يقبل التغيير ، ويعطل تكييف القانون تكييفاً تقدمياً يوائم سير الحياة ؛ ومن أجل هذا انتقلت روح البحث إلى ميادين أوسع حرية من ميدان القانون .

وانتشرت الجامعات فى جميع أنحاء إيطاليا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ونشأت بعضها من جامعة بولونيا بهجرة الأساتذة والطلاب من هذه الجامعة ؛ ومن ذلك أن پليوس غادرها فى عام ١١٨٢ لينشئ مدرسة فى مودينا ؛ وأن يقوبس دى مندرا Jacobus de Mandra خرج منها إلى رجيو إميليا Reggio Emilia فى عام ١١٨٨ وأخذ معه تلاميذه ، ونشأ من هجرة أخرى حدثت فى أغلب الظن من بولونيا عام ١٢٠٤ مدرسة عامة أو اتحاد مؤلف من عدة كليات فى ڤيسنزا ؛ وفى عام ١٢١٥ غادر رفريدس Roffredus جامعة بولونيا ليفتتح مدرسة للحقوق فى أرزو Arezzo ؛ وفى عام ١٢٢٢ وسع عدد كبير من المدرسين والطلاب الذين غادروا بولونيا مدرسة قديمة كانت فى پدوا ، فأضيفت كليات للطب والآداب إلى مدرسة الحقوق التى كانت فى هذه المدينة ؛ وبعثت إليها مدينة البندقية بطلابها ، وأسهمت فيما كانت تؤديه المدينة من مرتبات للأساتذة ؛ وبذلك أصبحت پدوا فى القرن الرابع عشر من أنشط مراكز

التفكير الأوربى . وفى عام ١٢٢٤ أسس فردريك الثانى جامعة نابلى ليمنع طلاب إيطاليا الجنوبية من الهجرة جماعات إلى الشمال : ولعل هذا السبب عينه مضافاً إلى الدبلوماسية الكنسية هو الذى حمل إنوسنت الرابع على إنشاء جامعة بلاط رومة التى تبعت البلاط البابوى فى هجراته ومنها هجرته إلى أفنيون نفسها . وفى عام ١٣٠٣ أسس بنيفاس الثامن جامعة رومة التى بلغت مجدها فى أيام نقولاس الخامس وليو العاشر ، وأحرزت لقب سپنزا Sapienza (العاقلة) فى عهد بولس الثالث . وبدأت سينا جامعة بلديتها فى عام ١٢٤٦ ، وپياسنزا فى عام ١٢٤٨ ؛ وقبل أن يختتم القرن الثالث عشر وجدت مدارس القانون ، والآداب ، والطب أيضاً أحياناً ، فى كل مدينة كبرى بإيطاليا .

وكانت جامعات أسپانيا فذة فى نوعها ، فقد أنشأها الملوك وبسطوا حمايتهم عليها ، فكانت تخدمهم وتخضع لإشراف حكوماتهم . فأنشأت قشتالة جامعة ملكية فى بالنسية (Palencia) (١٢٠٨) ثم أنشأت جامعة أخرى فى بلد الوليد (١٣٠٤) ؛ وأنشأت ليون Leon جامعة فى سلمنقة (١٢٢٧) وأنشأت جزائر البليار جامعة فى بالما (١٢٨٠) ، وأنشأت قطلونية جامعة فى لريدا (١٣٠٠) . وكانت الجامعات الأسپانية تقبل إشراف الكنيسة عليها والمعونة المالية منها رغم صلتها بالملوك ؛ ومنها ما نشأ من مدارس الكتدرائيات كجامعة بالنسية . وخص سان فرننلو وألفنسوا الحكيم جامعة سلمنقة بأموال كثيرة فى القرن الثالث عشر ، وسرعان ماساوت هذه الجامعة فى شهرتها ومركزها العلمى جامعتى بولونيا وباريس . وكانت معظم هذه الجامعات تعلم اللغة اللاتينية ، والعلوم الرياضية ، والفلك ، وعلوم الدين ، والقانون ؛ ومنها ما كان يعلم الطب ، واللغة العبرية ، أو اليونانية . وافتتح راهب دمنيكى فى عام ١٢٥٠ مدرسة للدراسات

الشرقية فى طليطلة لتدريس اللغتين العربية والعبرية . وما من شك فى أن هذه المدرسة قد أفادت خيراً كثيراً لأن أحد خريجيها ريمند مارتن Raymond Martin (حوالى عام ١٢٦٠) أظهر علماً واسعاً بجميع كبار الفلاسفة ورجال الدين المسلمين . وكذلك كان للدراسات العلمية مكان بارز فى جامعة أشبيلية التى أنشأها ألفنسو الحكيم فى عام ١٢٥٤ . وأنشأ الملك الشاعر دنيز Diniz فى لشبونة جامعة للبرتغال عام ١٢٩٠ .

obeikandl.com

الفصل السادس

جامعات فرنسا

كانت فرنسا بلا ريب الزعيمة العقلية لأوربا فى العصور الوسطى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ فقد أصبحت لمدارس كتدرائياتها منذ بداية القرن الحادى عشر شهرة دولية عظيمة ؛ وإذا كانت هذه المدارس قد نمت وازدهرت حتى أضحت جامعة عظيمة فى باريس لا فى شارتر ، أو لاؤن ، أو ريمس ، فأكبر الظن أن سبب هذا هو أن تجارة السين والأعمال المالية التى توجد عادة فى العاصمة قد جاءت إلى تلك المدينة بالثراء الذى يغرى العقول وأنها كانت تقدم المال الذى يحتاجه العلم والفلسفة والفن .

وأول من عرف من المعلمين فى مدرسة كتدرائية نتردام هو وليم الشامپووى William of Champeaux (١٠٧٠ — ١١٢١) ، وكانت محاضراته التى تلقى فى أبهاء نتردام مثار الحركة العقلية التى نشأت منها جامعة باريس ؛ ولما خرج أبلار من بريطانى (حوالى عام ١١٠٣) ووجه إلى وليم قياساً منطقياً أفعمه وقضى على سمعته ، وبدأ أشهر المحاضرات فى التاريخ الفرنسى ، هرع الطلاب من كل صوب ليستمعوا إليه ، فازداد عدد طلاب باريس وتضاعف عدد المدرسين . وكان الأستاذ (magister) فى عالم التربية بباريس فى القرن الثانى عشر رجلا أجاز له رئيس كتدرائية نتردام أن يدرس . وكانت جامعة باريس فى ذلك الوقت قد خطت خطوات سريعة لا نستطيع تتبعها ، فارتقت من مدرسة كنيسة المدينة ونالت وحدتها الأولى من هذا المصدر الوحيد مصدر الإجازة التعليمية . وكانت هذه الإجازة تعطى عادة بالمجان لكل من قضى وقتاً كافياً تلميذاً لأستاذ مرخص بشرط أن يوافق هذا

الأستاذ على طلبه ؛ وكان من التهم التى وجهت إلى أبلار أنه اشتغل بمهنة التدريس دون أن يقضى فترة التلمذة المعتمدة من أستاذ .

وكان إدراك فن التدريس على هذا النحو ، أى الأستاذ المعلّم والصبى المتعلم ، من الأصول التى قامت عليها الجامعة . ولما أن تضاعف عدد الأساتذة أنشأوا لهم بطبيعة الحال نقابة طائفية . وظل لفظ (جامعة Universitas) يطبق منذ قرون على كل هيئة من عدة أفراد بما فى ذلك النقابات الطائفية . وفى عام ١٢١٤ وصف ماثيو باريس « زمالة الصفوة المختارة من المدرسين » فى باريس بأنها منظمة قائمة من زمن بعيد . ولنا أن نفترض ، وإن كنا لا نستطيع أن نبرهن ، أن « الجامعة » اتخذت حوالى عام ١١٧٠ صورة نقابة طائفية للمدرسين لا اتحاداً لعدة كليات ، فلما كان عام ١٢١٠ أصدر البابا إنوسنت الثالث — وكان هو نفسه من خريجى جامعة باريس — مرسوما اعترف فيه بقوانين نقابة المدرسين المدونة واعتمدها ، ثم أصدر هذا البابا نفسه مرسوماً آخر خوّل فيه النقابة أن تختار مندوباً عنها يمثلها فى المحكمة البابوية .

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر انقسم مدرسو(*) جامعة باريس إلى أربع « سلطات » أو كليات كما نسميها الآن (faculties)(**) : اللاهوت ، والقانون الكنسى ، والطب ، و « الفنون » . ولم يكن للقانون المدنى بعد عام ١٢١٩ مكان فى جامعة باريس بعكس ما كانت عليه الحال فى جامعة بولونيا . وكان المنهج يبدأ بالفنون السبعة ، ثم يرقى إلى الفلسفة وينتهى بعلوم الدين . وكان طلبة الفنون Arts (وكانوا يسمون Artistae أى فنانين) هم المقابلين عندنا « للطلاب » الذين لا يزالون فى الجامعة ؛ وإذ كانوا هم يؤلفون الجزء

(*) لا يفرق المؤلف فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة بين مدرس وأستاذ .
(المترجم)

(**) الكلمة ذات صلة بكلمة facile الفرنسية ومعناها تيسير أو تخويل أو سلطة للعمل .
(المترجم)

الأكبر من المتعلمين فى باريس فقد انقسموا — لتبادل المعونة ولأغراض الألفة والاختلاط — إلى أربع أمم Nations حسب مسقط رأسهم natio أو أصلهم : « فرنسا » (أى المملكة الضيقة الخاضعة خضوعاً مباشراً للملك الفرنسى) وپكاردى Picardy ، ونورمندية ، وإنجلترا ؛ وضم طلاب جنوبى فرنسا وإيطاليا وأسپانيا إلى الطلبة الفرنساوى المولد ، وضم طلبة الأراضى الوطيئة إلى « پكاردى » وطلبة أوربا الوسطى الشرقية إلى « إنجلترا » ، وكان الطلاب الذين جاءوا من ألمانيا من الكثرة بحيث تأخرت تلك البلاد عن إنشاء جامعات بها حتى عام ١٣٤٧ . وكان يحكم كل جماعة « وكيل procurator » أو مدير ، وكل كلية عميد : وكان لطلاب كلية الفنون — ومدرسها فى أغلب الأحيان — مدير برأسهم ، ثم اتسعت دائرة أعماله تدريجاً حتى أصبح قبل عام ١٢٥٥ مدير الجامعة كلها .

ولسنا نسمع عن وجود أبنية خاصة بالجامعات ، ويلوح أن المحاضرات كانت تلقى أثناء القرن الثانى عشر فى أروقة نتردام ، وسان چنفييڤ ، وسان ڤكتور ، وغيرها من الأبنية الدينية ، ولكننا نجد فى القرن الثالث عشر مدرسين يستأجرون حجرات خاصة لفصولهم . وكان المدرسون — الذين أصبحوا يسمون أيضاً أساتذة professores ومعنى هذا اللفظ اللاتينى « المعلنون » — رجال دين مترهبين يفقدون مناصبهم إذا تزوجوا . وكانت طريق التعليم هى المحاضرات ، وأكبر السبب فى هذا أنه لم يكن فى مقدور كل تلميذ أن يبتاع الكتب التى تجب عليه دراستها ، أو يحصل على نسخ منها من دور الكتب . وكان الطلاب يجلسون على الطوار أو على الأرض ويدوّنون كثيراً من المذكرات . وكان العبء الملقى على ذاكرتهم شديداً اضطرهم إلى ابتكار عدة أساليب لمساعدة الذاكرة تتخذ فى العادة شكل أبيات شعرية مثقلة بالمعنى بغيضة الصورة . وكانت لوائح الجامعة تحرم على المدرس أن يقرأ محاضرته للطلاب ، بل كان يطلب

إليه أن يتكلم ارتجالا ، بل كان يحرم عليه أيضاً أن يُقطّع الكلام . وكان الطلاب يتبرعون بتحذير المستجدين من أن يؤدوا أجر أى منهج قبل أن يستمعوا إلى ثلاث محاضرات فيه . وقد شكا وليم الكنشيسى فى القرن الثانى عشر من أن المدرسين يلقون على الطلاب مناهج سهلة لكى يكسبوا بذلك الشهرة ، والطلبة ، والأجور ، وأن طريقة الاختيار التى تعطى للطالب مجالا واسعاً لاختيار الموضوعات والمدرسين أخذت تنزل بمستوى التعليم(٥٠) .

وكان التعليم ينتعش ويكتسب بعض الحيوية من حين إلى حين بمناقشات عامة تجرى بين المدرسين ، والطلبة المتقدمين ، والزائرين الممتازين ، وكان النقاش يجرى فى العادة على شكل مقرر محدد يسمى **النقاش المدرسى** : فيوضع السؤال ، ويجاب عنه جواباً سلبياً ، ويؤيد هذا الجواب بعبارات مقتبسة من الكتب المقدسة أو كتب آباء الكنيسة ، وبالاستنباط الذى يتخذ شكل الاعتراضات ؛ ويتلو ذلك جواب إيجابى يؤيد بمقتبسات من الكتاب المقدس ، ومن كتب آباء الكنيسة ، وبأجوبة منطقية على الاعتراضات ؛ والنقاش المدرسى هو الذى حدد الصورة النهائية للفلسفة المدرسية فى عهد تومس أكويناس . وكانت تُعقد بالإضافة إلى هذه المناقشات المدرسية الرسمية مناقشات غير رسميـة يسمونها « **أى شىء نحب** quodiberta » — يستطيع المناقش بموجبها أن يتقدم بأى سؤال يناقش فى التو والساعة . وقد أوجدت هذه المناقشات غير المقيدة هى الأخرى صورة من الصور الأدبية نشاهد مثلا منها فى كتابات القديس تومس الصغرى ؛ وشحذت المناقشات الرسمية منها وغير الرسمية العقول فى العصور الوسطى ، وأفسحت المجال لحرية التفكير والقول ؛ غير أنها اتجهت عند بعض الناس إلى خلق نوع من المهـارة يستطيعون به أن يثبتوا أى شىء يريدون إثباته ، أو الشعوذة اللفظية التى تكدس جبالا من الجدل حول أنفه النقط .

وكان معظم الطلاب يعيشون فى مضايف Hospicia تؤجرها جماعات منظمة من الطلاب . وكانت بعض المضايف تأوى فقراء الطلاب نظير أجر اسمى ؛ ومثال ذلك أن بيت الله Hôtel Dieu الملاصق لكتدرائية نتردام خصص حجرة « للطلبة الفقراء » . ثم اشترى چوسيوس اللندنى Jucius of London هذا المسكن فى عام ١١٨٠ واشترك من ذلك الوقت مع المستشفى فى تقديم المسكن والمأكل لثمانية عشر طالباً يقيمون فيه ، ولم يحل عام ١٢٣١ حتى كانت هذه الطائفة من الطلاب قد انتقلت إلى مسكن أوسع من مسكنها القديم ، ولكنها مع ذلك ظلت تسمى نفسها **جماعة الثمانية عشر** . ثم أنشأت طوائف الرهبان ، أو الكنائس ، أو أنشأ المحسنون الخيرون ، مضايف أو مساكن أخرى للطلاب ، وحبست عليها الحبوس ، أو خصت بأقساط سنوية خفضت بعض نفقات العيش على الطلاب . وفى عام ١٢٥٧ وهب ربرت ده سربون Robert de Sorbon قس القديس لويس « بيت السربون » المال اللازم لإيواء ستة عشر طالباً من طلبة علوم الدين ، وأضيفت إلى ذلك هبات لغير هؤلاء من لويس وغيره من المحسنين حتى ارتفع عدد من تشملهم إلى ستة وثلاثين ؛ ومن هذا البيت نشأت كلية السربون(*) وأنشئت كليات — Collegia بمعناها القديم وهو الجماعات — بعد عام ١٣٠٠ ، وجاء المدرسون إليها ليسكنوا فيها ، وعملوا مدرسين خصوصيين للطلاب ، يستمعون إلى محفوظاتهم ، و « يقرأون » معهم النصوص ؛ وأخذ المدرسون القرن الخامس عشر يدرسون بعض المناهج فى أبهاء المساكن ، وازداد عدد المناهج التى تدرس بهذه الطريقة ، ونقص عدد ما يدرس منها فى خارجها ، حتى أضحت « الكلية » مكاناً للتعليم ومسكناً للطلاب فى وقت واحد .

(*) وأصبحت السربون فى القرن السادس عشر الكلية الدينية فى الجامعة ، ثم أغلقتها الثورة فى عام ١٧٩٢ ، وأعادها بعدئذ نابليون ، وهى الآن مركز لتدريس مناهج عامة فى العلوم والآداب فى جامعة باريس .

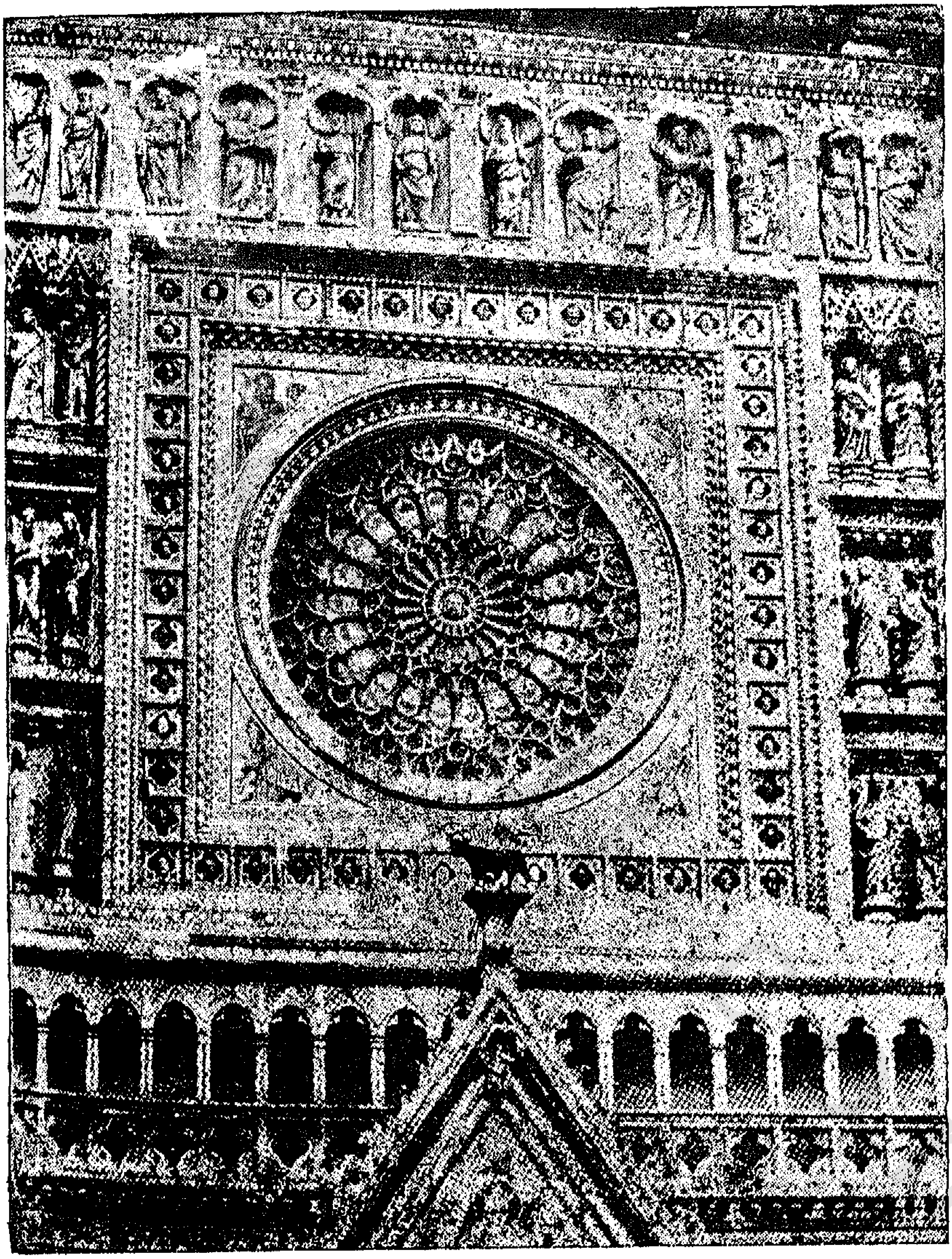

(الصورة رقم ٢) واجهة وردية — كتدرائية ارفيتو

obeikandl.com

وحدث مثل هذا التطور فى الكلية من بيت الطلبة فى أكسفورد ، ومنپلييه ، وطولوز . وهكذا بدأت الجامعة من جمعية للمدرسين حتى أضحت جمعية من المعاهد أو الكليات .

وكان من بين مساكن الطلاب فى باريس مسكنان مخصصان للطلاب المبتدئين الجدد فى طائفتى الرهبان الدمنيك أو الفرنسيس ، وكان الرهبان الدمنيك من بداية أمرهم يهتمون بالتعليم ويتخذونه وسيلة لمقاومة الإلحاد . وقد أنشأوا لهم مدارس على نظام خاص بهم أشهرها كلها المدرسة العامة Studium generale فى كولونى ، وكانت لهم معاهد أخرى من نوعها فى بولونيا ، وأكسفورد . وأصبح كثيرون من الإخوان أساتذة فى هذه المدارس ، يعلّمون فى الأروقة الخاصة بطائفتهم . وفى عام ١٢٣٢ . انضم ألكسندر الهاليسى Alexander of Hales وهو من أقدر المدرسين فى باريس إلى طائفة الرهبان الفرنسيس ، وواصل تدريس مناهجه للجمهور فى دير الكردلير Cordeliers ، وأخذ عدد الإخوان الذين يدرسون فى باريس يزداد عاما بعد عام ، كما أخذ عدد من يستمعون إليهم من غير الرهبان يتضاعف ، حتى شكا المدرسون من غير رجال الدين أنهم قد تركوا جالسين أمام مكاتبهم «كالطيور المنفردة فى أعلى البيوت » ، وأجاب الرهبان عن ذلك بأن المدرسين غير الرهبان يسرفون فى الطعام والشراب ، فأضحوا لذلك كسالى بلداء(٥١) . وحدث فى عام ١٢٥٣ أن قتل طالب فى شجار بأحد الشوارع ، فاعتقل ولاة الأمور فى المدينة عدداً من الطلاب ، وأعرضوا عن احتجاجهم وطلبهم أن يحاكموا أمام أساتذة الجامعة أو الأسقف ، وأمر المدرسون بوقف المحاضرات احتجاجاً على هذا التصرف ؛ ولكن اثنين من رهبان الدمنيك ، وواحداً من الرهبان الفرنسيس ، وهم من جمعية المدرسين ، لم يطيعوا أمر الامتناع عن إلقاء المحاضرات ، فقررت الجمعية وقف عضويتهم فيها ؛ غير أنهم لجأوا إلى الإسكندر الرابع فأمر أساتذة الجامعة (١٢٥٥) بإعادتهم إلى

عضوية الجمعية . وأراد المدرسون أن يتجنبوا إطاعة الأمر فتفرقوا ، وحرمهم البابا من الدين واعتدى الطلاب والغوغاء على الرهبان فى الشوارع ؛ ودام الجدل ست سنين تراضى الطرفان بعدها : فقبل الأساتذة بعد أن نظموا من جديد ، المدرسين الرهبان ، وأقسم هؤلاء أن يطيعوا من ذلك الوقت قوانين « الجامعة » . ولكن كلية الفنون حرمت جميع الرهبان حرمانا دائماً من عضويتها . وناصبت جامعة باريس البابوية العداء بعد أن كانت محل عطفهم ، وناصرت الملوك فى نزاعهم مع البابوات ، وأضحت فى مستقبل الأيام مركز حركة « غاليـّة » تسعى لفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة .

ولم يكن لأى معهد علمى منذ أيام أرسطو من النفوذ ما كان لجامعة باريس ، فقد ظلت ثلاثة قرون لا تجتذب إليها أكبر عدد من الطلاب فحسب ، بل تجتذب فوق ذلك أعظم مجموعة من الرجال ذوى العقلية الممتازة . فأبلار ، وحنا السلزبرى ، وألبرتس مجنس ، وسيجر البرابنتى ، وتومس أكوناس ، وبورڤنتونا Boroventura ، وروچر بيكن ، ودنزاسكوتس ، ووليم الأكامى William fs Occam — هؤلاء يكادون يكونون هم تاريخ الفلسفة من ١١٠٠ إلى ١٤٠٠ . وما من شك فى أنه كان فى باريس مدرسون أفذاذ هم الذين أخرجوا أولئك الرجال العظام ، ونشروا من المتعة العقلية ما لا يوجد إلا فى ذرى التاريخ البشرى . يضاف إلى هذا أن جامعة باريس كانت خلال هذه القرون ذات سلطان قوى فى الدين والدولة ، فقد كانت لساناً قوياً يعبر عن الرأى العام ، وكانت فى القرن الرابع عشر من أعظم مراكز التفكير الحر ، وفى القرن الخامس عشر حصناً منيعاً للدين القويم والمحافظة على القديم . ولا يمكن القول بأنها « لم تضطلع بدور حقير » فى الحكم على چان دارك .

وكان لغيرها من الجامعات نصيب فى رفع فرنسا إلى منزلة الزعامة الثقافية فى أوربا . فقد كان فى أورليان مدرسة للقانون منذ القرن التاسع لا بعد ، وكانت

فى القرن الثانى عشر مركزاً للدراسات القديمة والأدبية الحديثة تنافس شارتر ، ولم يكن يفوقها فى القرن الثالث عشر إلا بولونيا فى تدريس القانون المدنى والكنسى . ولا تكاد تقل عنها فى شهرتها مدرسة القانون فى أنجر Angers وهى المدرسة التى أضحت فى عام ١٢٣٢ من أكبر جامعات فرنسا . وكانت طولوز « طلوشة » مدينة بجامعتها إلى إلحادها فى الدين : ذلك أن جريجورى التاسع أرغم الكونت ريمند فى عام ١٢٢٩ على أن يتعهد بأداء مرتبات أربعة عشر أستاذاً — فى علوم الدين ، والقانون الكنسى ، والفنون — يرسلون من باريس إلى طولوز لمقاومة حركة الإلحاد الألبجنسية بفضل ما لهم من النفوذ على الشبان الأكتانيين .

وكانت أشهر الجامعات الفرنسية القائمة فى خارج باريس هى جامعة منپلييه . لقد كانت هذه المدينة ، بفضل وقوعها على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف المسافة بين مرسيليا وأسبانيا ، تستمتع بمزيج وثاب من الدم الفرنسى ، واليونانى ، والأسبانى ، ومن ثقافة هذه الأجناس ؛ وكان من أهلها عدد من التجار الإيطاليين وبقية من الجالية الإسلامية المغربية التى كانت فى وقت ما تحكم المدينة وكانت تجارتها رائجة ناشطة . وأنشأت منبلييه فى وقت غير معروف مدرسة للطب ما لبثت أن فاقت مدرسة سلرنو ، ولسنا نعلم علم اليقين أكان إنشاؤها أثرا من آثار طب سلرنو ، أم طب العرب ، أم اليهود . وأضيفت إلى هذه المدرسة مدارس للقانون وعلوم الدين ، و « الفنون » ، واكتسبت منبلييه بفضل تقارب هذه الكليات وتعاونها شهرة علمية واسعة ، وإن كانت كل واحدة منها كلية مستقلة . واضمحل شأن الجامعة فى القرن الرابع عشر ، ولكن مدرسة الطب انتعشت فى عصر النهضة ، وقام فيها عام ١٥٣٧ أستاذ يدعى فرانسوا ربليه يلقى سلسلة من المحاضرات عن أبقراط باللغة اليونانية .

الفصل السابع

جامعات إنجلترا

نشأت أكسفورد ، كما نشأت بسپورس المماثلة لها فى اسمها ، لتكون معبراً للماشية ؛ ذلك بأن نهر التاميز يضيق عند هذه النقطة ويقل غوره . وبنى حصن عندها فى عام ٩١٢ ، ونشأت سوق ، وعقد الملكان كنوت Cnut وهرلد Harold جمعيات هناك قبل أن تنشأ الجامعة بزمن طويل . ويبدو أن مدارس نشأت فى اكسفورد فى أيام كنوت ، ولكننا لا نسمع بوجود مدرسة كتدرائية بها . ونسمع حوالى عام ١١٧ عن وجود « أستاذ فى أكسفورد » ، Oxenford . وفى عام ١١٣٣ جاء من باريس ربرت پلن Robert Pullen ، وهو رجل من رجال الدين ، وأخذ يحاضر فى اللاهوت فى أكسفورد(٥٢) . وخطت المدرسة خطوات لايعرف التاريخ عنها شيئاً الآن ، أضحت بعدها مدرسة أكسفورد فى القرن الثانى عشر مدرسة عامة أى جامعة — « ولا يعرف أحد متى تم ذلك »(٥٣)

وفى عام ١٢٠٩ ، كما يقدر ذلك أحد كتاب ذلك العصر ، كان فى أكسفورد ثلاثة آلاف طالب ومدرس(٥٤) . وكان فيها كما كان فى جامعة باريس أربع كليات : كلية الفنون ، وكلية اللاهوت ، وكلية الطب ، وكلية قانون الكنيسية . أما تدريس القانون المدنى فقد أغفلته الجامعات فى إنجلترا واستقر فى دور المحاكم فى لندن — وكانت دار لنكولن ، وجراى ، والمعبد الداخلى Inner Temple ، والمعبد الأوسط Middle Temple فى القرن الرابع عشر وليدة البيوت أو الحجرات التى كان القضاة وأساتذة القانون القرن الثانى عشر يستقبلون فيها الطلاب ليدربوهم .

وبدأت الكليات فى أكسفورد كما بدأت فى باريس وكمبردج أروقة محبوسة عليها الأموال لفقراء الطلاب ، وأصبحت فى زمن مبكر ، بالإضافة إلى غرضها الأول قاعات للمحاضرات ؛ فكان المدرسون يسكنون فيها مع الطلاب ، ولم ينقض القرن الثالث عشر حتى كانت القاعات هى الأقسام المادية والتعليمية التى تكونت منها الجامعة . وحوالى عام ١٢٦٠ أنشأ سير جون ده باليول Sir John de Balliol الاسكتلندى (والد الملك الذى حكم اسكتلندة فى عام ١٢٩٢) « بيت باليون » فى أكسفورد ؛ ليكفر به عن جرم غير معروف ، ليأوى بعض الطلاب الفقراء الذين سموا socii أى الزملاء ، وخص كلا منهم بثمانية بنسات (أى ما يعادل ٨ دولارات أمريكية) فى الأسبوع . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أنشأ ولتر ده مرتون Walter de Merton « بيت طلاب مرتون » فى مولدن Malden أولا ثم فى أكسفور بعد قليل ، وحبس عليه بعض المال ، ليعنى بطلاب بقدر ما تمكنه من ذلك موارده . وتضاعفت هذه الإيرادات أكثر من مرة على أثر ارتفاع قيمة الأرض ، وبلغ هذا الارتفاع حداً شكا معه كبير الأساقفة بكهام Peckham فى عام ١٢٨٤ من أن « الطلبة الفقراء » يتلقون منحاً إضافية « للمعيشة المترفة »(٥٥) . ويمكن القول بوجه عام إن الكليات الإنجليزية لم تغتن بفضل المنح الدراسية وغيرها من الهبات فحسب ، بل اغتنت فوق ذلك بفضل ارتفاع قيمة الضياع التى حبست عليها . وفى عام ١٢٨٠ أنشئت قاعة الجامعة — وهى الآن كلية الجامعة University College بهبة من وليم الدرهامى كبير أساقفة رون Rouen . ويتبين الإنسان كيف بدأت هذه الكليات الشهيرة بداية متواضعة إذا اطلع على شروط تأسيسها ، فقد كانت تنص على وجود أربعة أساتذة وعدد من الطلاب الذين يهمهم أن يسكنوا معهم . وكان الأساتذة يختارون واحداً من بينهم ليكون « الزميل الأكبر »

أو « الرئيس principal » وهو الاسم الذى يعرف به عمداء الكليات الإنجليزية فى هذه الأيام . وكانت جامعة أكسفورد فى القرن الثالث عشر هى هذه الكليات مجتمعة فى نقابة الأساتذة «University» ؛ وكان هؤلاء يحكمهم وكلاء عنهم ثم مدير يختارونه ويخضع إلى أسقف لنكولن وإلى الملك .

ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت أكسفورد مركزاً للنشاط الذهنى والنفوذ العام لا تفوقها فى ذلك إلا باريس . وكان أشهر خريجيها كلهم هو روجر بيكن . والتف حوله عدد آخر من الرهبان الفرنسيس من بينهم آدم مارش Adam Marsh ، وتومس اليوركى Thomas of York ، وجون بكهام John Peckham ، فتألفت منه ومنهم جماعة ممتازة من رجال العلم . وكان زعيمهم وملهمهم ربرت جروستستى Robert Grosseteste (١١٧٥ ؟ — ١٢٥٣) أظرف شخصية فى حياة أكسفورد فى القرن الثالث عشر : فقد درس فيها القانون والطب ، والعلوم الطبيعية ، وتخرج فى عام ١١٧٩ ، ونال درجته فى علوم الدين فى ١١٨٩ ، وسرعان ما اختير بعدئذ « أستاذ مدارس أكسفورد » — وتلك أقدام صووة من لقب مدير الجامعة .

وأصبح فى عام ١٢٣٥ ، وهو لا يزال مديراً لجامعة أكسفورد ، أسقف لنكولن ، وأشرف وهو فى منصبه هذا على إتمام الكتدرائية العظيمة . وأبدى نشاطا عظيما فى دراسة اللغة اليونانية وأرسطو ، وأسهم فى الجهود العقلية الجبارة التى بذلت فى القرن الثالث عشر للتوفيق بين فلسفة أرسطو والدين المسيحى ، وكتب شروحاً لكتاب الطبيعة لأرسطو ، والتحليلات ، ولخص علوم زمانه فى موسوعة علمية ، وعمل على إصلاح التقويم . وكان يفهم المبادئ التى يقوم عليها المجهر والمرقب ، وفتح أبواباً كثيرة لروجر بيكن فى الرياضيات والعلوم الطبيعية ؛ وأكبر الظن أنه هو الذى عرف بيكن بالخصائص المكبرة

obeikandi.com

للعدسات[٥٦] . ويبدو أن كثيراً من الآراء التى نعزوها إلى بيكن — فى فن المنظور ، وقوس قزح ، والمد والجزر ، والتقويم ، والاعتماد على التجارب العلمية — قد أشار بها عليه جروستستى ، ونخص منها بالذكر الفكرة القائلة إن العلوم كلها يجب أن تعتمد على الرياضيات ، لأن القوى كلها أثناء انتقالها فى الفضاء تتبع أشكالا وقواعد هندسية[٥٧] . وكتب شعراً فرنسياً ورسالة فى الزراعة ، وكان رجل قانون وطبيباً ، كما كان عالما فى الدين وفى العلوم الطبيعية . وقد شجع دراسة اللغة العبرية ، وكان يهدف بذلك إلى هداية اليهود إلى الدين المسيحى ، وكان فى هذه الأثناء يعاملهم معاملة المسيحى الكثير التسامح ، ويحميهم قدر ما يستطيع من حقد الجماهير واعتدائهم . وكان فوق هذا كله مصلحا اجتماعيا نشيطا ، يدين على الدوام بالولاء للكنيسة ، ولكنه جرؤ على أن يعرض على البابا إنوسنت الرابع (١٢٥٠) مذكرة مكتوبة يعزو فيها عيوب الكنيسة إلى محكمة الكرسى البابوى[٥٨] . وأنشأ فى أكسفورد أول « صندوق » يقرض الطلاب المال بغير فائدة[٥٩] ، وقصارى القول أنه هو أول واحد من ألف من ذوى العقول النابهة الذين أوجدوا بأعمالهم الجليلة هيبة أكسفورد العالية ومكانتها العظيمة فى عالم العلم والعقل .

وأكسفورد الآن جامعة ومركز صناعى معاً ، تصنع السيارات كما تصنع العظماء ، أما كيمبردج فلا تزال مدينة كليات جامعية ، وجوهرة من جواهر العصور الوسطى تزينها الثروة الحديثة وحسن الذوق الإنجليزى ، كل ما فيها ينتمى إلى كلياتها ، ولا يزال الهدوء العقلى الذى هو من خصائص العصور الوسطى باقيا فى هذه البلدة ، أجمل البلدان الجامعية على الإطلاق . ويبدو أن عظمتها الذهنية يجب أن ترجع إلى حادث اغتيال وقع فى أكسفورد فقد قتل أحد الطلاب فى عام ١٢٠٩ امرأة فى تلك البلدة الأخيرة ، فاعتدى أهلها على مسكن الطلاب وشنقوا طالبين أو ثلاثة منهم . وأضربت نقابة المدرسين عن

العمل احتجاجا على ما اقترفه أهل المدينة ، وغادر أكسفورد ٣٠٠٠ طالب ومعهم ، بطبيعة الحال ، كثيرون من المدرسين — إذا صدقنا ماثيو باريس وهو رجل لا يوثق بأقواله عادة . ويقال إن عدداً كبيراً منهم ذهبوا إلى كيمبردج وأقاموا فيها قاعات وكليات . ذلك أول ما ذكر عن وجود شيء أعلى درجة من مدرسة أولية . وحدثت هجرة ثانية — من الطلاب الباريسيين في ١٢٢٨ — زاد بها عدد الطلاب زيادة كبيرة . وفي عام ١٢٨١ نظم أسقف إلى Ely أولى الكليات غير الدينية في كيمبردج وهي كلية القديس بطرس التي تسمى الآن پيتر هوس « بيت بطرس » . وشهدت القرون الثلاثة الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر إنشاء كليات أخرى وازدهارها ، منها ما هو آية من آيات العمارة في العصور الوسطى . ويحتضنها كلها نهر كام Cam الهادئ المتثني ، وتكون هي وملحقاتها طائفة من أروع ما قام به الإنسان من الأعمال .

الفصل الثامن

حياة الطلاب

لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ؛ فقد يكون فى أى سن ؛ وقد يكون قساً أو راهباً ممتازاً ، أو رئيس دير ، أو تاجراً ، وقد يكون متزوجاً أو غلاماً فى الثالثة عشرة من عمره ؛ يثقله عبء الكرامة المفاجئة التى ألقيت عليه فى هذه السن . وكان هذا الطالب يذهب إلى بولونيا ؛ أو أورليان ؛ أو منپلييه ليصبح محامياً ، أو طبيباً ، أو يذهب إلى غير هذه الجامعات فى بعض الأحوال لكى يؤهل نفسه لخدمة الحكومة ؛ أو يجد لنفسه فى العادة مجالا فى الكنيسة . ولم يكن يؤدى امتحاناً للدخول فى الجامعة ، بل كل ما كان يطلب إليه أن يعرف اللغة اللاتينية ، وأن يكون قادراً على أداء أجر زهيد لكل مدرس يدرس منهجه عليه . فإذا كان فقيراً ، فإنه قد يستعين على ذلك بمنحة دراسية أو بمعونة تسديها إليه قريته أو كنيسته ، أو يسديها إليه أصدقاؤه أو أسقفه . وكانت هناك آلاف من هذه الحالات(٦٠) . فسامسون Samson رئيس الدير وبطل **أخبار جوسلين** Jocelyn's Chronicle **والماضى والحاضر** لكارليل Carlyle's Past and Present مدين بتعليمه إلى قس فقير كان يبيع الماء المقدس ليؤدى لسامسون أجر تعليمه(٦١) . وكان الطالب الذاهب إلى جامعة أو العائد منها ينتقل عادة بالمجان ، ويجد الطعام والمأوى فى الأديرة التى فى طريقه(٦٢) .

فإذا قدم إلى أكسفورد ، أو پاريس أو بولونيا ألفى نفسه عضواً فى جماعة كبيرة من الطلاب السعداء ؛ الحيارى ، المقبلين على العلم يجرفهم تيار دافق من الحماسة يجعل الفلسفة — المشوبة بنزعة إلى الإلحاد — مثيرة كالحرب ؛ كما

يجعل الجدل ممتعا فتانا كأنه ألعاب البرجاس . وإذا كان يعيش فى عام ١٣٠٠ فإنه يجد فى باريس ٧٠٠٠ طالب ، وفى بولونيا ٦٠٠٠ ، وفى أكسفورد ٣٠٠٠(*) . وكان عدد طلاب جامعات باريس ، وأكسفورد وبولونيا فى القرن الثالث عشر يزيد عادة على عددهم بعده ، وأكبر الظن أن سبب هذه الزيادة قلة الجامعات المنافسة لها ، وكان الطالب الحديث تستقبله « أسرته » وقد ترشده إلى مسكن يعيش فيه — ربما كان مع أسرة فقيرة . وإذا كان لها صلات قوية بالمسئولين فقد يعطى سريراً ويترك مع غيره من الطلاب فى حجرة فى « بيت الطلبة » ، فتقل بذلك نفقاته . وكان الطالب فى أكسفورد عام ١٣٧٤ يؤدى مائة شلن وأربعة شلنات (ألف دولار وأربعين دولاراً) فى العام نظير مسكنه وطعامه وعشرين شلناً (أى مائتى دولار) أجراً لتعليمه وأربعين شلناً ثمناً لملابسه(٦٥) .

ولم يكن تفرض عليه ملابس جامعية خاصة ، على أنه كان يطلب إليه أن يشد ثوبه الخارجى بالأزرار وألا يمشى حافى القدمين إلا إذا كان جلبابه يصل إلى عقبيه(٦٦) . وكان الأساتذة يمتزون بلبس القبة Cappa وهى « حرملة » حمراء أو أرجوانية ذات حاشية من جلد السنجاب ومُقَنَّعة ، وكانوا فى بعض الأحيان يغطون رءوسهم بقلنسوة مربعة فى أعلاها خصلة بدل « الشرابة » . وكان الطالب فى جامعة باريس فى منزلة رجل الدين ويتمتع بحصاناته . فكان

(*) هذه هى تقديرات راشدول Rashdall المتحفظ(٦٣) . أما أودوفردوس Odofredus العالم القانونى الذى كان يكتب فى عام ١٢٥٠ فقد قدر عدد طلاب بولونيا فى عام ١٢٠٠ بعشرة آلاف طالب ، وقدر رابانس جوما Rabanus Gaume وهو راهب نسطورى عدد طلاب جامعة بارس فى عام ١٢٨٧ بثلاثين ألفا ، وقال فتز رالف Fitzralph كبير أساقفة أرماغ Armagh حوالى عام ١٣٦٠ إنه كان فى جامعة أكسفورد فى وقت ما ثلاثون ألف طالب ؛ وقدرهم ويكلف Wyclif فى عام ١٣٨٠ بضعف هذا العدد ؛ وعاد الأسقف غاسقوين Gascoigne الذى كان رئيس شرف فى جامعة أكسفورد فقدرهم بثلاثين ألفا(٦٤) ؛ ولا يخفى أن هذه التقديرات كلها إنما تعتمد على الحدس والتخمين ، وأنها مبالغ فيها بلا ريب ولكننا لا نستطيع البرهنة على كذبها .

يعفى من الخدمة العسكرية ، ومن الضرائب التى تفرضها الدولة على غيره ، ومن المحاكمة أمام المحاكم غير الدينية . وكان ينتظر منه أن يدخل فى سلك رجال الدين ؛ على أنه لم يكن يرغم على ذلك فى كل الأحوال . وكان فى وسعه إذا تزوج أن يظل طالباً ، ولكنه فى هذه الحال يفقد امتيازات رجال الدين ، ولا يستطيع الحصول على درجة علمية . أما الاختلاط الجنسى المتزن فلم يكن يجازى عليه بمثل هذه العقوبات . وقد وصف الراهب جاك ده ڤترى Jaque de Vitry طلبة جامعة باريس فى عام ١٢٣٠ بأنهم : « فاسقون أكثر من سائر أبناء الشعب ؛ فهم لا يرون الفسق إثماً ؛ وكانت العاهرات يسحبن الطلاب إلى المواخير سحباً يكاد يكون قوة واقتداراً ، ويفعلن ذلك علناً فى شوارع المدينة ، فإذا امتنع الطلاب عن الدخول اتهمتهم باللواط . . . وكانت هذه الرذيلة البشعة (اللواط) تملأ المدينة إلى حد كان يعد معه من علامات النبل أن يكون للشخص غلام أو أكثر . وكان يوجد فى المنزل الواحد حجرات للدرس فى الطابق العلوى وماخور فى أسفل منه ؛ فكان الأساتذة يحاضرون فى الطبقة العليا ، والعاهرات يمارسن حرفتهن الدنيئة فى الطبقة السفلى ؛ وكانت مناقشات الفلاسفة تسمع فى البيت الواحد مختلطة بمشاحنات العاهرات والقوّادين(٦٧) .

هذا وصف يحمل فى طياته المغالاة الواجبة ؛ وكل ما يحق لنا أن نستنتجه منه أن لفظى **طالب العلم والقديس** لم يكونا مترادفين فى باريس(*) . ويواصل جاك وصفه فيقول إن كل « أمة » من الطلاب كانت لديها صفات محببة لها تصف بها « الأمم » الأخرى . فالإنجليز كانوا يوصفون بأنهم يكثرون من الشراب وأن لهم ذيولا ؛ والفرنسيون كانوا مزهوين مخنثين ؛ والألمان

(*) ولكن قارن هذا بقول راشدول : « وإن الأدلة لكثيرة على أن الصورة التى يصور بها ده ڤترى الحياة المدرسية ليست فى أساسها غير صادقة وإن كان فيها مبالغة(٦٨) » .

obeikandi.com

كانوا صخابين ؛ « بذيئين إذا شربوا » ؛ والفلمنكيون كانوا بدناً نهمين « لينين كالزبد » ؛ وكانوا كلهم « كثيراً ما ينتقلون بهذا الاغتياب من الألفاظ إلى اللكمات »(٦٩) . وكان طلاب جامعة باريس يحشرون أولا فى الجزيرة التى تقوم عليها كتدرائية نُتردام ؛ وكانت هذه الجزيرة هى الحى اللاتينى الأصلى ، وكان سبب تسميتها بذلك الاسم أن الطلاب كان يراد منهم أن يتكلموا باللغة اللاتينيه — حتى فى حديثهم غير المدرسى — وهى قاعدة كثيراً ما كانت تخرق ، وحتى حين اتسعت رقعة الحى اللاتينى حتى شملت الطرف الغربى من الضاحية الممتدة فى جنوب نهر السين ، كان عدد الطلاب فيها من الكثرة بحيث لم يكن من المستطاع السيطرة عليهم ، فكانت المشاحنات كثيرة بين الطالب والطالب ، وبين الطالب والأستاذ ، وبين الطالب والشخص من أهل البلدة ، وبين الراهب وغير الراهب . هذا فى باريس ، وفى أكسفورد كان ناقوس سانت مارى يدعو الطلاب ، وناقوس سانت مارتن يدعو أهل البلدة ، إلى حرب متقطعة بين بلدة وبلدة . وقد حدث شغب فى أكسفورد (١٩٢٨) وقعت فيه على الممتلكات أضرار قيمتها ٣٠٠٠ جنيه (١٥٠٫٠٠٠ دولار)(٧٠) . وأصدر موظف فى باريس (١٢٦٩) إعلاناً ضد الطلاب الذين « يرتكبون بالنهار والليل فظائع تؤدى إلى إصابة الكثيرين بالجروح وإلى قتلهم ، ويخطفون النساء ، ويفسقون بالعذارى ، ويسطون على البيوت » ، ويرتكبون « مراراً وتكراراً حوادث السرقة وغيرها من القطائع »(٧١) . واربما كان طلاب أكسفورد أقل انهماكا فى الشهوات الجنسية من طلبة باريس ، ولكن حوادث القتل كانت كثيرة فيها ، وتنفيذ العقاب فى القاتل كان نادراً ؛ فقلما كان القاتل يطارد إذا غادر البلدة ، وكان الرجل فى أكسفورد يرى أن حسب القاتل عقاباً له على جرمه أن يضطر إلى الانتقال إلى كيمبردج(٧٢) .

وإذ كان شرب الماء غير مأمون العاقبة وقتئذ ، لأن أوربا لم تكن قد

عرفت الشاى ، أو القهوة ، أو الدخان ، فإن الطلاب كانوا يوفقون بين حاجتهم من جهة ، وبين مطالب أرسطو والحجرات غير المدفأة من جهة أخرى ، بالخمر والجعة . وكان من الأسباب الداعية إلى إنشاء « نقابات » الطلاب الاحتفال بالأعياد الدينية والجامعية بالشرب الكثير جهرة . وكانت كل خطوة فى السنة المدرسية « موسماً للطرب » يحيا بالشراب . وكان الطلاب فى كثير من الحالات يقدمون هذه المرطبات لممتحنيهم . وكانت « الأمم » فى العادة تنفق فى الحانات كل ما بقى لديها من المال فى آخر العام الدراسى . وكان لعب الكعوب تسلية أخرى للطلاب ، وقد فرضت عقوبة الحرمان الدينى على بعض الطلاب للعبهم بالكعوب على مذابح نتردام[٧٣] . أما فى الأوقات الأكثر نظاماً فقد كان الطلاب يسلون أنفسهم بالكلاب ، والصقور ، والموسيقى ، والرقص ، والشطرنج ، ورواية القصص ، والسخرية من الطلبة الجدد . وكان هؤلاء الجدد يسمون ذوى المناقير الصفر ، وكانوا يتخذون هدفاً للإساءة والسخرية ، ويرغمون على إقامة وليمة لسادتهم الذين سبقوهم إلى الجامعة بعام ؛ وكان الخروج على القوانين يعاقب بالغرامات أو بإرغام الخارج على تقديم عدة جالونات من الخمر يشربها الجماعة . ولم يرد ذكر للجَلْد فى تأديب طلاب الجامعات حتى القرن الخامس عشر وإن كان كثيراً ما يلجأ إليه فى المدارس العامة . وكان ولاة الأمور فى الجامعة يفرضون على الطلاب زيادة على هذا أن يقسموا يميناً مغلظة بإطاعة جميع اللوائح ، وكان من الأيمان المفروضة فى جامعة باريس يميناً يتعهد الطالب بمقتضاها ألا ينتقم من الممتحنين الذين يسقطونه فى الامتحان[٧٤] ، فكان التلاميذ يقسمون مسرعين وينقضون أيمانهم على مهل . لقد كان الحنث فى الأيمان كثيراً لأن الجحيم لم تكن ترهب رجال الدين المحدثين .

ومع هذا كله كان وقت الطلاب يتسع لسماع المحاضرات . وكان منهم الكسالى ، ومنهم من كان الفراغ أحب إليهم من الشهرة ؛ فكانوا لذلك

يفضلون مناهج القانون الكنسى الذى كانت دروسه تبدأ فى الساعة الثالثة وتمكنهم من أن يواصلوا نومهم(٧٥) . وإذ كانت الساعة الثالثة بحساب ذلك الوقت هى الساعة التاسعة صباحاً ، فإنه يظهر من هذا أن معظم الفصول كانت تبدأ الدراسة بعيد الفجر ؛ وأكبر الظن أن ذلك كان فى الساعة السابعة صباحاً . وكانت السنة الدراسية فى بداية القرن الثالث عشر تدوم أحد عشر شهراً ، وقبل أن ينصرم القرن الرابع عشر كانت « العطلة الطويلة » ، التى نشأت من الحاجة إلى أيدى الشباب فى زمن الحصاد ، تمتد من ٢٨ يونية إلى ٢٥ أغسطس أو ١٥ سبتمبر ، وفى جامعتى أكسفورد وباريس لم تكن عطلة عيد الميلاد وعيد الفصح تزيد على بضعة أيام قليلة ، أما فى جامعة بولونيا حيث كان الطلاب أكبر سناً وأكثر غنى ، ولعلهم كانوا أيضاً أبعد موطناً ، فقد كانت عطلة عيد الميلاد عشرة أيام وعطلة عيد الفصح أربعة عشر يوماً ، وكانوا يعطون واحداً وعشرين يوماً فى الحفلات التى تسبق الصوم الكبير .

ويبدو أنه لم تكن تعقد امتحانات فى أثناء دراسة المناهج ، ولكن كان هناك إلقاء ونقاش ، وكان يمكن إقصاء العاجزين فى خلال الدراسة . ثم نشأت حوالى منتصف القرن الثالث عشر عادة إلزام الطالب ، بعد أن يمضى خمس سنين مقيما فى الجامعة للدراسة ، أن يؤدى امتحاناً أولياً أمام لجنة من « أمته » . وكان هذا يتضمن أولا اختباراً خاصاً منفرداً — يشمل إجابات عن أسئلة ، ويتضمن ثانيا مناقشة علنية يدافع الطالب فيها عن موضوع أو موضوعين ، ويفند اعتراض المعترضين ، ثم يختتم النقاش بتلخيص للنتائج . وكان الذين يجتازون هذه الاختبارات الأولية بنجاح يسمون البكلارى Baccalarii أى الأتباع ؛ وكان يسمح لهم أن يخدموا أستاذاً بوصفهم مدرسين مساعدين أو محاضرين « عاجلين » . وكان فى وسع التابع أن يواصل دراساته وهو مقيم ثلاث سنين أخرى ، فإذا رأى أستاذه بعدئذ أنه خليق بالتقدم إلى الامتحان قدم إلى ممتحنين يعينهم رئيس الجامعة .

وكان ينتظر من الأساتذة ألا يقدموا طلاباً يتضح أنهم غير مستعدين للامتحان إلا إذا كان هؤلاء الطلاب من ذوى الثراء أو المكانة الممتازة ؛ وكان الامتحان فى هذه الحالة يعد لكى يناسب مقدرة الطالب ، أو كان يُستغنى عنه استغناء تاما(٧٦) . وكانت الصفات الخلقية من الموضوعات التى يشملها الامتحان ؛ لذلك فإن الجرائم الخلقية التى يرتكبها الطالب خلال السنين الأربع أو السبع التى يقضيها فى الجامعة قد تحول بينه وبين الحصول على الدرجة التى يريدها ، لأن الدرجة كانت شهادة بالرقى الأخلاقى والاستعداد العقلى فى وقت واحد . وحسبنا شاهداً على ذلك أن السبعة عشر الذين رسبوا من ثلاثة وأربعين تقدموا لامتحان جامعة ڤينا فى عام ١٤٤٩ رسبوا كلهم لنقص فى أخلاقهم ، ولم يرسب منهم واحد لعدم كفايته العقلية .

فإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان العلنى والأخير أصبح أستاذاً أو « دكتوراً » وحصل من تلقاء نفسه على إجازة مصدق عليها من السلطة الدينية ليدَرِّس فى أى مكان شاء فى العالم المسيحى . وكان وهو « تابع » يُدَرِّس مكشوف الرأس ، أما الآن وقد نال إجازته فقد كان يتوّج بقلنسوة ، ويقبّله أستاذه ويباركه ، ثم يجلسونه فى كرسى الأستاذية ، فيلقى محاضرة افتتاحية ، أو يعقد نقاشا افتتاحيا ؛ وكان هذا هو بداية عمله أستاذاً . وكان من مستلزمات هذا التخرج أن يدعو جميع أساتذة الجامعة أو كثرتهم إلى وليمة ويقدم لهم الهدايا ، وبهذه الاحتفالات وغيرها ينضم إلى نقابة الأساتذة .

ومما يريح بالنا أن نقول إن التعليم فى العصور الوسطى كان فيه من العيوب المتعبة بقدر ما فى نظمنا التعليمية فى الوقت الحاضر . فلم يكن يواصل الدراسة فى الخمس السنين التى يتطلبها نيل البكالوريوس إلا قلة صغيرة من المقيدين فى

سجلات الجامعة . وكان افتراض ذوى الشأن أن جميع عقائد الكنيسة المقررة يلتزم بها المؤمنون بالدين مما يدعو عقول الطلاب للدعة لا للعمل . وكان البحث عن الحجج التى تثبت هذه العقائد ، وإيراد الشواهد من الكتاب المقدس أو من أقوال آباء الكنيسة لتأييدها ، وتفسير أقوال أرسطو بحيث تتفق معها ، كان هذا كله يدرّب العقول على التقسيم الشّعرى الدقيق أكثر مما يدرب الذهن على توخى الحقيقة والإذعان لما يمليه الضمير الحى . وفى وسعنا أن نسارع إلى العفو عن هذه الأخطاء إذا ذكرنا أن أى أسلوب من أساليب الحياة ينمى مثل هذا التعسف فى الإيمان بالفروض التى يقوم عليها هذا الأسلوب . وها نحن أولاء فى هذه الأيام نترك الناس أحراراً يشكّون فى عقائد آبائهم الدينية ، ولا نتركهم أحراراً يشكون فى عقائدهم السياسية ؛ وهاهو ذا الإلحاد السياسى يعاقب عليه بالحرمان الاجتماعى كما كان الإلحاد فى الدين يعاقب عليه بالحرمان الدينى فى عصر الإيمان . والآن ورجل الشرطة يعمل جاهداً لكى يحل محل الله ، فقد أصبح الارتياب فى الدولة أشد خطورة من الارتياب فى الكنيسة ، ذلك أنه ما من نظام يغض النظر عن تحدى المبادئ الأساسية التى يقوم عليها .

وما من شك فى أن انتقـــال المعارف والتدرب على معرفة القيم أكثر انتشاراً وأعظم قدراً فيما يبدو لنا مما كانا فى العصور الوسطى ، ولكننا لا يصح لنا أن نقول هذا القول نفسه عن التربية الخلقية . ولم تكن المقدرة العملية مما تعوز خريج الجامعة فى العصور الوسطى ، فقد كانت تخرج فى كل عام عدداً كبيراً من رجال الإدارة القادرين ، ورجال القانون الذين أوجدوا الملكية الفرنسية ، والفلاسفة الذين قادوا سفينة المسيحية فى بحار العقل الصاخبة ، والبابوات الذين أوتوا من الجرأة ما جعلهم يفكرون تفكير أوربا الموحدة . ولقد شحذت المسيحية ذكاء

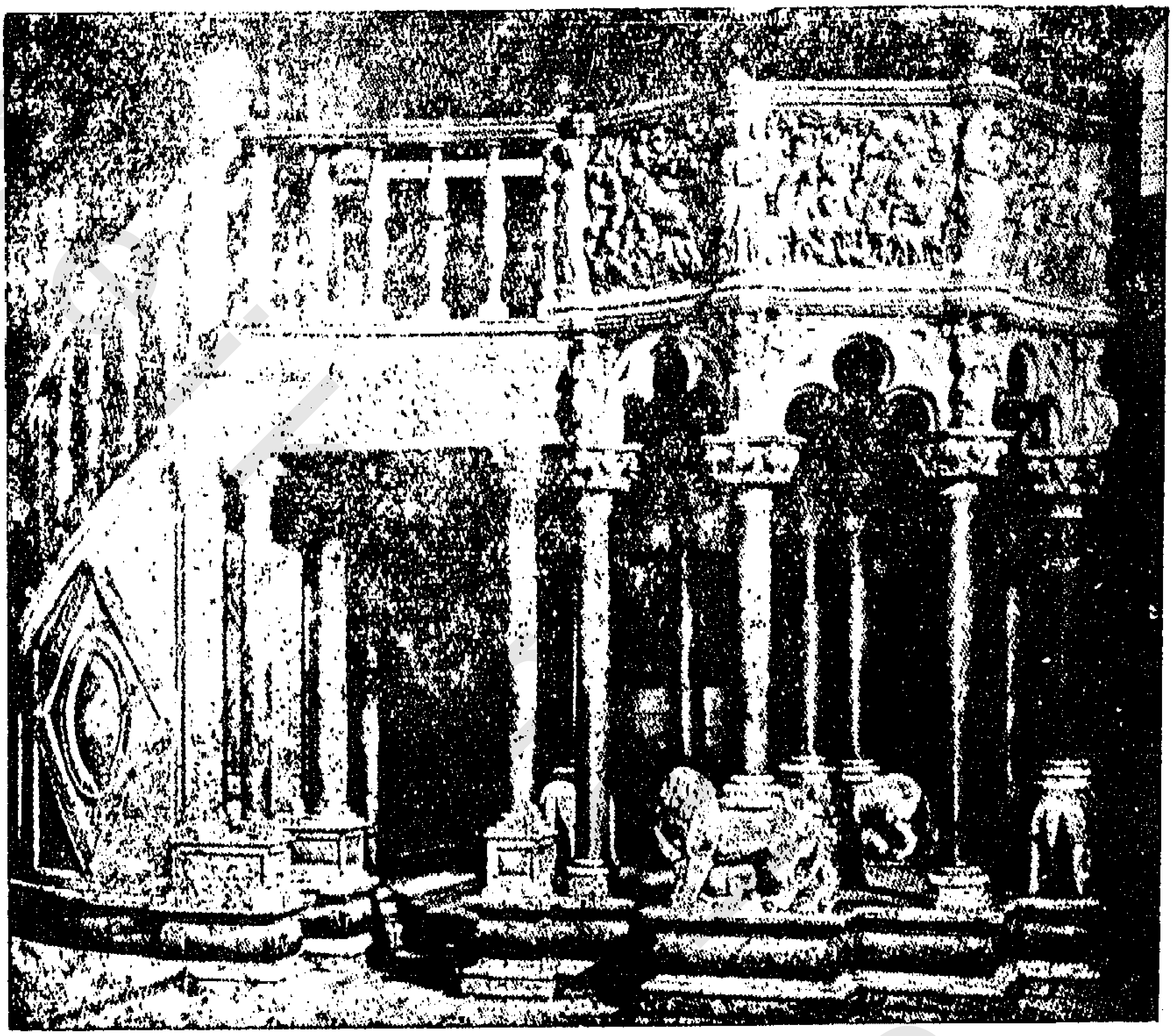

(الصورة رقم ٣ منبر پيزانو

obeikandl.com

الرجل الغربى ، وخلقت لغة الفلسفة ، ورفعت مكانة التعلم وهيبته ، وقضت على فترة المراهقة الذهنية عند البرابرة الظافرين .

لقد انهارت كثير من أعمال العصور الوسطى أمام عجلة الزمن التى تدمر كل شئ فى سبيلها ، أما الجامعات التى خلفها لنا عصر الإيمان بكل ما فيها من عناصر التنظيم ، فها هى ذى تكيف نفسها حسب التطورات التى لا مفر منها ، وتخلع عن نفسها إهابها القديم لتحيا حياة جديدة ، وتنتظر منا أن نعقد لواءها بلواء الحكومة .

obeikandl.com